كلمة العدد

مركز الوثائق والوثيقة بين الحلم والواقع

بقلم : سمو الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

ما أسرع ما تمضي الأيام . . إن نظرة إلى الوراء تكاد تجعل الإنسان لا يصدق أن عقوداً مرت . . فمنذ ثلث القرن تحول الحلم إلى حقيقة . . ومنذ ربع قرن تحول حلم آخر إلى واقع ملموس .

الحلم الأول كان (إنشاء مركز الوثائق التاريخية) . أما الحلم الثاني فكان (إصدار مجلة الوثيقة) .

قبل ثلث القرن كان البحث في تاريخ البحرين والمنطقة درباً شاقاً أمام اجتيازه عقبات وعقبات . . وكان المتصدي لهذا النوع من النشاط العلمي كمن نذر نفسه للمشقة والعناء .

لم يكن بالمنطقة إلا المراجع الأجنبية التي كتبها بعض المستشرقين وكان أهمهم وأشهرهم لوريمر . . ونحن لا ننكر ما بذلوه من جهد وما تحملوه من مشقة وما أدوه من خدمة لكثير من فروع المعرفة . . ونحن لا نفترض سوء النية . . ولكننا نقول إن رصد مفردات مجتمع مثل المجتمع الخليجي بكل معطياته وتقاليده التي تواترت عبر حقب طويلة من الزمن تحتاج إلى المعايشة التامة، ولا يمكن لمؤرخ أو جغرافي أو باحث من خارج المنطقة أن يحيط إحاطة تامة بطبيعة الحياة في هذا المجتمع ولا بالفلسفة الكامنة وراء بعض العادات والتقاليد التي انحدرت منها الأجيال . . لذلك وقع هؤلاء الباحثون في أخطاء عن غير قصد ولكنها في النهاية أخطاء في تفسير الكثير من العادات . وعلى سبيل المثال، تصور بعضهم أن قيام شخص ما بالزواج المتعدد معناه أن هذا الشخص محب للنساء وبالتالي اعتمد تقييمه لهذا الشخص ولتصرفاته على هذا الفهم . . والحقيقة بالطبع هي أن التعدد أمر سمح به الدين لدواعٍ لم يكن ليفهمها أي مستشرق خاصة في بدايات القرن التاسع عشر . . كما أن التعدد لبعض الشخصيات الهامة لم يكن لميل جنسي وإنما كان وسيلة لدعم التحالفات بين بعض المجموعات القبلية .

وهكذا في كثير من الأغلاط التي وقع فيها الكثيرون من الباحثين الأجانب نتيجة اختلاف المجتمعات التي عاشوا فيها عن المجتمع الخليجي الذي كتبوا عنه ورصدوا مفرداته . . وكانت هذه الأغلاط تنتقل من باحث لآخر حتى أصبحت لدى

بعض الكتاب الأجانب لونا من الثوابت أو مجموعة من الأغلاط تعتمد على خطأ رئيسي .

وكانت الخطورة الكبيرة هي أن هذه المراجع بكل ما فيها من خير وشر كانت هي المصادر المتاحة أمام الباحثين من أبناء المنطقة . . وكان المؤرخون الكبار يعتمدون على حدسهم في كثير من الأمور . . أما شباب الباحثين فقد سقط كثيرون منهم في مصيدة بعض المراجع الأجنبية . . هذه المصيدة كانت الشغل الشاغل وكان الحلم هو أن نتمكن من تصحيح هذا المسار وأن تعاد كتابة تاريخ البحرين والمنطقة على أسس موثقة وصادقة وبأيدي أبناء الخليج أنفسهم .

لم تكن المهمة سهلة ولم نكن نعرف أنها سهلة . . بل كنا متأكدين أننا اخترنا الدرب الصعب وأن المهمة أو الحلم المرجو، دونه جهد وعرق وعناء . . كان العمل يستهدف بالدرجة الأولى جمع الوثائق الأصلية الخاصة بالبحرين وبالمنطقة .

وبتأييد وتشجيع من جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك البحرين، عندما كان ولياً للعهد، بدأ البحث عن الوثائق في كثير من المضامين ولدى الكثير من الأرشيفات في الشرق والغرب . . وعبر السنين، بدأ المخزون يزداد تدريجاً وأمكن جمع عشرات الآلاف من الوثائق ذات العلاقة بالمنطقة . . ومن ثم فتح الباب للباحثين الشباب الذين كانوا يشدون الرحال إلى الشرق والغرب بحثاً عن وثيقة قد تساعدهم في كتابة بحث أو دراسة عن

البحرين أو الخليج دون أن تتصور مدى الصعوبة التي كان يتعرض لها الباحث الشاب الذي كان مضطراً للسفر إلى أوروبا وتكبد نفقات الإقامة الباهظة ليعود بعدة أسطر .

مثل هذا الشاب أصبح يجد بغيته الآن في بلده وفي (مركز الوثائق) الذي فتح أبوابه للجميع بلا استثناء والذي قدم لهؤلاء الباحثين كل الوثائق المتاحة مفهرسة ومصنفة لتكون قريبة التناول سهلة المنال .

وعلى نفس الدرب ومنذ أكثر من ربع قرن بدأ العمل لتحقيق الحلم الثاني . . كان الهدف الكبير هذه المرة هو إصدار دورية تكون ساحة تتحول على صفحاتها الوثائق المجموعة إلى دراسات موثقة وجاءت (الوثيقة) محققة لهذا الطموح إلى أبعد حد . . وخلال الأعداد المتتالية، والتي لم تتوقف أو تتأخر عن موعدها لأكثر من ربع قرن، تبارى الباحثون من كل مكان لنشر أبحاثهم ودراساتهم عن البحرين والخليج . . وأصبحت بأعدادها التي بلغت بهذا العدد الذي بين يديك أيها القارئ العزيز (٥٧ عددا) مرجعاً لا غنى عنه لمن يريد أن يعرف التاريخ الحقيقي والموثق عن البحرين وعن الخليج في كثير من الحقب التي مرت بالمنطقة والتي كانت من قبل تعتبر في عالم المجهول .

إننا ندرك دائماً أن الطموح لا يقف عند حد ولا يتوقف دون أفق، فمازال هناك الكثير مما نأمل في تحصيله . . ومما نرجو أن نوفي به، وفاءً بالوعد الذي قطعناه على أنفسنا منذ ثلث قرن عند

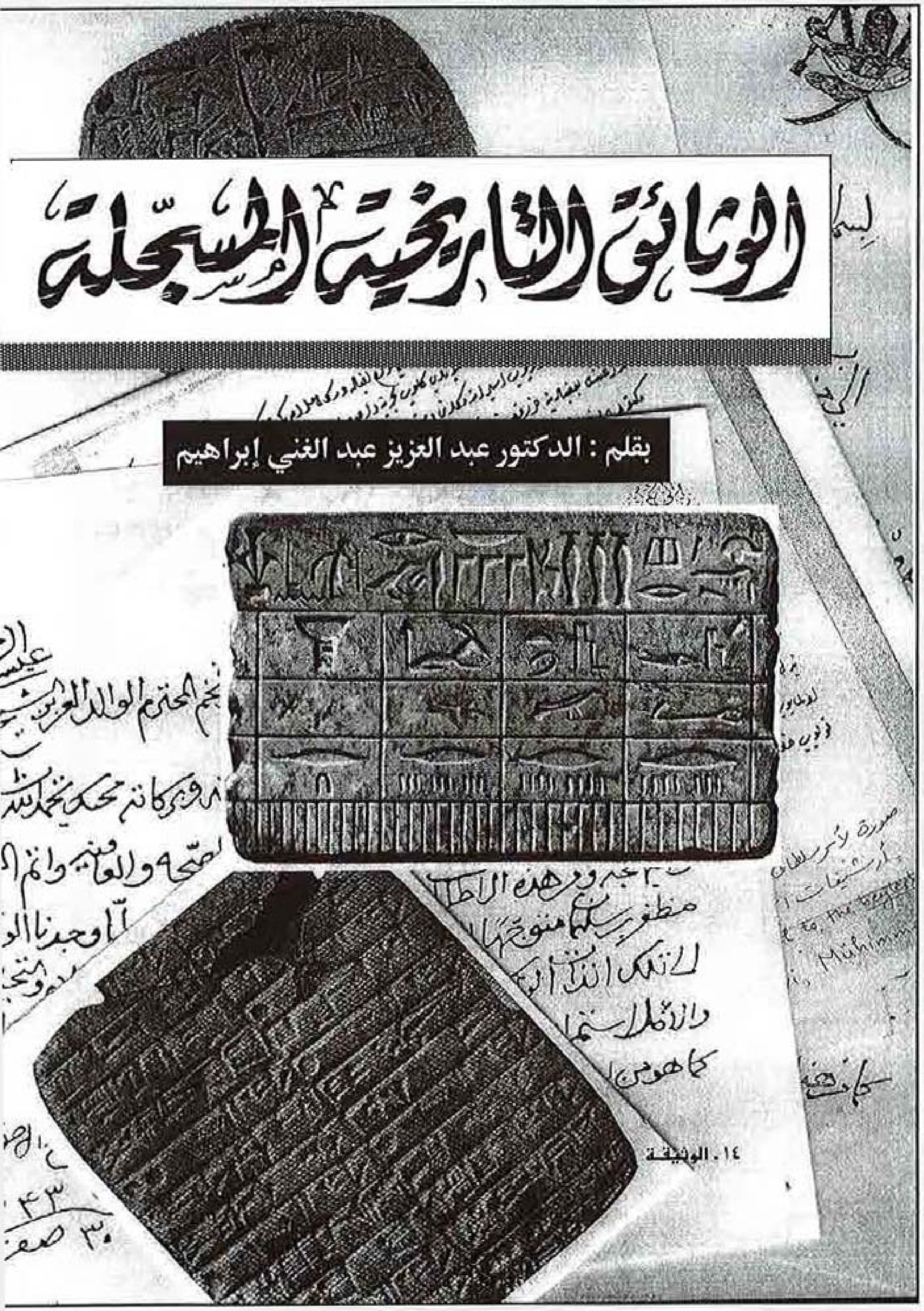
إنشاء (مركز الوثائق) ومنذ أكثر من ربع قرن عند إصدار (مجلة الوثيقة) وهو أن يتحول مركز الوثائق إلى مقصد للباحثين وطلاب العلم وأن تتحول الوثيقة إلى ساحة لعرض الرأي والرأي الآخر وأن يتجمع من هذا وذاك الحصيلة المطلوبة والموثقة والكافية لكتابة تاريخ البحرين بما يتواءم مع حقيقة مكانتها وتاريخها ودورها البارز والمرموق في تاريخ المنطقة كلها، وهو دور احتفظت به صفحات التاريخ، وكان محوراً هاماً وفعالاً من محاور التاريخ في المنطقة قديماً وحديثاً .

والله ولي التوفيق

عبد الله بن خالد آل خليفة

الوثائق التاريخية المسجلة

بقلم : الدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم



وأهمية مقارنتها بالروايات الشفهية

المؤرخ صانع فعالية التاريخ، تتشكل عدته في صناعة البناء التاريخي من الوثيقة التي هي المادة التي يعلي بها صرح البناء التاريخي . وكذلك من الصفات التي تميز المؤرخ نفسه من صبر وجلد، وسعة في المعرفة، وتمرس في النقد وصدق ونزاهة، وقوة توسم وخيال مقيد بالشواهد الوثائقية .

وتعد هذه الصفات التي يمتاز بها المؤرخ الخارطة التي يقوم عليها البناء التاريخي . فالمادة لا تصنع البناء، والحروف لا تصنع الكلمات ما لم تنظم، والكلمات لا تصنع الجمل المفيدة ما لم تجد من ينظمها بمنهج وهدف . وعلى ضوء هذا يجب علينا أن نقر بداية بأن التاريخ مادة تتأثر بالذاتية، وجدت الوثيقة أم لم توجد .

ونذهب إلى أننا حين ندفع لمؤرخين اثنين بمجموعة واحدة من ذات الوثائقِ فإننا سنصل بالقطع إلى صياغة عملين متمايزين منهجا، وقد لا يتفقان في نهاية المطاف على نتيجة بعينها .

سقنا هذه المقدمة لنقول بأن صناعة التاريخ تعتمد على عنصرين متلازمين هما : الوثائق، والمؤرخ، كل على حدة . سيقتصر بحثنا هنا على الوثيقة دون المؤرخ الذي بيده أن يقارن بين هذه الوثائق المختلفة، يعتمد منها ما يشاء على ضوء قدراته على النقد وسلامة الحجة .

فهل يجوز للمؤرخ أن يصنف الروايات إلى شفهية ومسجلة ويعتمد على هذا التصنيف في تضعيف هذه المجموعة أو قبول تلك، أم أن عليه أن ينظر لكلا الصنفين من العمل بعين مجردة وعقل مفتوح لا يتقيد باختلاف مناهج النقد اللازمة لكلا النوعين .

نبدأ بسؤال نحسب بأنه سينفي الفواصل بين الوثيقة الشفهية والوثيقة المسجلة ونعتقد أنهما وجهان لعملة واحدة لا اختلاف بينهما يستوجب بالضرورة مقارنة واحدة منهما بالأخرى . فحين يقتضي العمل التاريخي مقارنة بين الوثائق هذين الشكلين من الوثائق .علينا ألا ننظر إليها بحسبان أن هذه وثيقة شفهية والأخرى مسجلة، إنما يجب علينا أن ننظر إلى كافة الوثائق في ضوء النقد التاريخي الذي يصنع الضوابط المنهجية لكل من هذين الشكلين من الوثائق .

والسؤال هو : ما هي الوثيقة ؟

اشتقت كلمة وثيقة (Document) من الأصل اللاتيني (Docere) بمعنى يعلم، ولهذه الكلمة (وثيقة Document) عدة معان تتسع وتضيق : فهي في معناها الحرفي الضيق تعني كافة أوراق الدولةً الرسمية التي تضم القوانين التشريعية والتنفيذية والقضائية والمعاهدات وكافة المعاملات المتصلة بالدوائر الرسمية . أما المعنى الأوسع لهذه الكلمة فيشمل كافة الأوراق المكتوبة والمصورات والبقايا الأركيولوجية والروايات الشفهية وكافة ما يمكن للمؤرخ أن يستعين به من مادة في كتابته للتاريخ .

أما كلمة توثيق (Documentation) فإنها ذات مدلول أشمل وأعم مما ذكرنا، فهي غير مقصورة على الشواهد التاريخية ومواد المؤرخين لأنها تدل على كل وسيلة ممكنة للبرهان على أمر ما اعتماداً على مراجع بعينها . فالتوثيق يستخدمه المؤرخون كما يستخدمه غيرهم من الباحثين والمعنيين بالمجالات العلمية المختلفة .

وعلى ضوء ما ذكرنا نرى أن الوثيقة المكتوبة، والوثيقة المنقوشة والمصورة والمحفورة، والوثيقة الشفهية، لا تزيد عن كونها نقوشاً على وجهي عملة واحدة يقع على المؤرخ تحديد قيمتها التاريخية .

وفي اعتقادنا أن الرواية الشفهية أصل متجذر في كتابة التاريخ الذي لا نستطيع أن نرد بداية كتابته إلا إلى الاستفسار . فإذا سلمنا بما هو متعارف عليه في أوساط المؤرخين من أن التاريخ المكتوب بدأ مع هيرودوت الملقب بأبي التاريخ، فإننا نجد أن تواريخ هيرودوت لا تزيد

عن كونها أسئلة وإجابات، بل إن كلمة تاريخ نفسها حين نحاول الوصول إلى معناها اللغوي (هستوريا HISOTRIA) فإننا نجد أن ترجمتها لا تعني إلا كلمة استفسار . وأن الاستفسار الذي قام به هيرودوت ثم ثيوديد (THUYDIDES) من بعده ومن لف لفهما في ذلك العصر حوى فيما حوى المتواترات (ORAL TRACTITIONS) كما اشتمل على المعلومات التي سعى كل من هذين المؤرخين وغيرهما إلى جمعها من أفواه الناس .

ذهبت بهيرودوت أسفاره بعيداً عبر آسيا الصغرى ومناطق من الشام وفلسطين ومصر وهو يجمع من أفواه الناس القصص عن الماضي ويتفحص الآثار ويقف دارساً عنـــد الأطلال والخرائب والمخلفات الأثرية . ولا مندوحة من القول بأن كثيراً من تواريخ هيرودوت قد روت حوادث وقعت قبل عهده بقرون أثبتها هذا المؤرخ دون دليل مكتوب إنما استقاها من أفواه الرجال .

كتب هيرودوت عن أهرامات مصر وعن فراعنتها ووضع لهم تسلسلاً تاريخياً، كما ذكر شيئاً من أخبارهم . ونسج هيرودوت على ضوء منهجه من أقوال محدثيه ما أثبت العلم الحديث صدقه، واستحق هيرودوت باستفساراته التي أثبتها لقب أبي التاريخ، ذلك رغم أنه أورد كثيراً من الترهات التي سمعها والتي لا تثير في القارئ الحديث إلا الضحك .

ويختلف عمل ثيوديد عن عمل هيرودوت وأعمال غيره من المؤرخين الإغريق والرومان (اكسنفون، بوليبوس، سالوست، قيصر،

تاكيتوس، أميانوس Ammianus ومارسيلينوس Marcelinus وغيرهم) في أنه اعتمد الوثائق الشفهية ولكنه زاد على ذلك بأن أثبت خبرته الخاصة وغدا شاهداً على عصره . فقد شارك ثيوديد في كثير من الحوادث التي كتب عنها . كتب الرجل عن حرب البلوبونيز التي كان من جنودها، وقد بدأ تسجيله لحوادث تلك الحرب مع بداياتها . واستمر على دأبه ذاك يكتب عنها دون انقطاع لمدة سبع وعشرين سنة متصلة، وهي المدة التي شغلتها تلك الحرب . كان ثيوديد طول هذه المدة الزمنية يسجل الحوادث التي عاشها في الميدان، ولكنه لم يكتف بذلك فقد كان يشد الرحال من مدينة إغريقية إلى أخرى يناقش المشتركين في الحرب ويأخذ من أفواههم ويكتب . وعلى الرغم من الدقة التي اتسمت بها كتابات هذا المؤرخ العظيم، إلا أنه صرح في مقدمته بأنه لم يرم إلى بلوغ مرحلة "الدقة المتناهية" لأنه عمد إلى نقل القيم المفيدة المتخلفة عن الحوادث التي رواها له الآخرون . وفي اعتقادنا أن ما قاله ثيوديد هنا يضعه في مقدمة المؤرخين في كل عصر، فالتاريخ قيمة أخلاقية وهدف في ذاته يرمي إلى خدمة المجتمع .

واستمر الغربيون يعتمدون المتواترات والشواهد الشفهية قبل فترة العصور الوسطى، وعلى امتداد هذه الفترة حتى نهايتها . وكان لهذه الشواهد والمتواترات أهمية خاصة يعترف بها المؤرخون الغربيون في العصر الحديث في دراسة وتسجيل ما جاء في "الكتاب المقدس" (BIBLE) في العهدين القديم والجديد وبخاصة في العهد الجديد (الأناجيل) . فالثابت تاريخياً أن كل ما ورد في العهد الجديد تم جمعه وتصنيفه في القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وقد استغرق هذا الجمع

للمادة من أفواه الناس أكثر من ٧٠ عاماً . وقد كان أكثر النصارى في تلك الفترة أميين لا يعرفون الكتاب "إلا أماني" ويعتمدون تماماً على الكلمة المنطوقة، وكان أوائل المنصرين في أوروبا يعتمدون على الكلمة المنطوقة لا المقروءة في نشر ثقافة الإنجيل في أوساط المتحولين الجدد في أوروبا .

أما في العصر الوسيط فقد اعتمد المؤرخون الغربيون على التاريخ الشفهي اعتماداً كبيراً خاصة ما ورد عن أولئك المؤرخين الذين يعرفون بالمؤرخين التقليديين الذين يرجعون إلى ويلز واسكتلندا وإلى أيرلندا خاصة .

عرفت هذه المناطق عدداً من المؤرخين اتخذوا من رواية التاريخ حرفة يكسبون بها معاشهم . وكانت الأسر الكبيرة التي يردد لها هؤلاء المؤرخون تاريخها هي التي تتولى الإنفاق عليهم وتوظيفهم ولربما تجاوز هؤلاء المؤرخين مهمة المؤرخ فتجاوزوا إلى المحاباة والتغني بمآثر تلك المجموعة من العائلات، وبرروا ازدهار الأحوال الاجتماعية والسياسية في ذلك الوقت وردوه إلى أهل الفضل والخير من تلك الأسر . ولكننا حتى حين نستثني هؤلاء الجماعة من المداحين لا يسعنا إلا أن نؤكد بأن المؤرخين الملتزمين كانوا في تلك الفترة في أعمهم يعتمدون على الرواية الشفهية في تلك المجتمعات التي يمكن وصفها بأنها كانت أمية أو - على أحسن الفروض - شبه أمية . فكل مؤرخي غرب أوروبا المشهورين في العصور الوسطى من أمثال بيدي Bede وجريجوري التلوزي وأسيدور السفيلي (Isidore Seville) و ودكند (Widukind)

والآخرين كانوا مثلهم مثل أسلافهم الإغريق والرومان في التاريخ المعاصر لهم واستعانوا بالمتواترات التي ورثوها من أخبار النصارى الأول، وأضافوا على ذلك – كما تشهد كتاباتهم – الأمثال والأقوال السائرة .

وظلت للتاريخ الشفهي المكانة الأولى في فكر مؤرخي العصور الوسطى في أوروبا . ويكفينا أن نشير إلى أن كافة سير "الآباء" وشهداء النصرانية الأول ومن إليهم من الرموز المقدسة في الفكر النصراني لم يتم تدوينها في أوروبا إلا اعتباراً من القرن الثالث عشر . وقد اعتمد هؤلاء المؤرخون في هذا الصدد اعتماداً كاملاً على ذاكرة الشعوب وصدور الرجال التي توارثت تلك الأقوال جيلاً بعد جيل . ويمكن القول بأن الوثيقة الشفهية قد ازدادت في تلك الفترة رسوخاً وقداسة بفضل ما تحويه من أخبار القديسين والمقدسين . وفي الحقيقة فإن قداسة الرواية لم ترتبط في الذهن الأوروبي بالعصور التي شهدت تسجيل تاريخ النصرانية فقط وإنما تجاوزت تلك إلى عصري الإغريق والرومان . فأحداث سقوط طروادة كما ترويها الإلياذة كان لها في الفكر الأوروبي القديم درجة من القداسة وربما اعتبر بعض مستنيري ذلك العصر هومر المؤرخ الأول الذي سبق هيرودوت . ولم يكن هومر – على ضوء هذا الفهم – إلا أول من يشار إليه من المؤرخين الشفهيين . ويؤكد احترام الأوروبيين المستنيرين في ذلك العصر القديم للرواية الشفهية ما ينسب إلى سقراط أو إلى بعض أساتذته من الفلاسفة من قول بأنه يفضل لكلماته أن تطبع على قلوب البشر الأحياء ولا يريد لها أن تدون على جلود الأبقار النافقة . وفي ظننا أن الرجل لم يخطئ الصواب، فالكلمة التي تعبر الأجيال من لسان إلى لسان أدعى للاحترام من الكلمة

المحفوظة في الأضابير وأوسع منها انتشاراً . وأهمية الوثيقة الشفهية — في ظننا — كبيرة جداً، فأكثر الحوادث المتصلة بالإنسان لا تجد طريقها إلى التسجيل ولا تخلف ما يحدث عنها كتابة ولكنها قد تظل متواترة على ألسنة المجتمع .

أخذت الرواية الشفهية في كتابة التاريخ الأوروبي تفقد قداستها ثم مكانتها منذ فجر النهضة وظهور فكر الإنسانيين ثم تهاوت بعد ذلك بالدراسات النقدية التي كان لورنزو فالا رائدها في ذلك العصر . لم يثبت التاريخ الأوروبي الذي كان يقوم على التاريخ الشفهي بقوة أمام تلك الدراسات النقدية وأخذت أسسه تتصدع، وأصبحت الوثيقة المكتوبة من ثمة هي الأساس المعتمد لكتابة التاريخ .

وتطور منذ القرن السادس عشر مفهوم الوثيقة المسجلة مع تطور الفكر المادي للغرب . وفي القرن التاسع عشر عدت الوثيقة المكتوبة هي الركيزة الأساسية في توثيق التاريخ . ثم ما لبث أن تطورت في القرن التالي وسائل الطباعة وعلوم الأرشيف والمكتبات ووسائل الحفظ عموماً تطوراً كبيراً فأصبحنا نجد من مؤرخي الغرب من يقول : حين لا توجد وثيقة مسجلة فعلى التاريخ أن يصمت . ومع ذلك نجد أن كثيراً من مؤرخي التاريخ العسكري الغربيين لا يزالون على دأبهم يستخدمون الرواية الشفهية في كتاباتهم استخداماً واسعاً .

أما في البلاد العربية والأفريقية والبلاد النامية عموماً، فلم تظفر الوثيقة المسجلة بالريادة في تسجيل التاريخ الحديث إلا مؤخراً بعد الانفتاح على الغرب من قبل المؤسسات التعليمية المستحدثة في هذه

البلاد وذلك لأن هذه البلاد كانت تفتقر إلى وسائل وآليات وتقنيات التوثيق المسجل ، ولأن تلك المجتمعات كانت في أعمها مجتمعات تسودها الأمية . غير أن الإنسان الذي هو مخلوق تاريخي لم يهمل في هذه المناطق تاريخه إنما تولاه بالحفظ وتعهده بالرعاية في الصدور وعلى الشفاه .

ولا تزال كثير من البلاد الأفريقية التي لم تجد حظها الوافر من التعليم تروي تاريخها شفاهة، ولا يزال في العديد من المجتمعات الأفريقية المتحدثة بالعربية والهوسا والسواحيلية على وجه الخصوص رواة محترفون اقتصرت مهمتهم على حفظ التاريخ عن الآباء . ففي رواندا – على سبيل المثال لا الحصر – أسر تتوارث أباً عن جد الرواية التاريخية يدرب الآباء الأبناء على حفظها وإلقائها تدريبا طويلاً مضنياً . ولا ريب أن وجدنا في هذا البلد رواة تاريخ محترفين رسميين تقتصر مهامهم على رواية التاريخ على الملأ إلقاءً في الأماكن العامة، كما نجد هنا نسابين تقتصر مهامهم على حفظ أسماء الملوك والملكات بالتتابع . وتختلف الفئتان المذكورتان في رواندا عن فئة من المواطنين المتخصصين في ذكر جلائل أعمال الملوك السابقين ومدح القائمين على الأمور من أبنائهم . وقد أحسن الذهن الرواندي حين ميز هذه الفئة الأخيرة وأطلق عليها لقب المداحين، أما الفئتان الأولى والثانية فلم يطلق عليهما أيضاً لقب المؤرخين إنما عرفهما باسم المكتبات المتحركة أو المكتبات التي تسعى على قدمين (Walking Libraries) .

أما التاريخ في البلاد العربية فقد عرف منه العرب في جاهليتهم لوناً شفهياً ساذجاً تمثل بصفة أساسية في حفظهم لأصول أنسابهم وفخرهم بمآثر أقوامهم وترقية روح الانتماء للعشيرة والقبيلة، وصاغوا كل ذلك شعراً ونثراً حفظوه في صدورهم وجرى على ألسنتهم . ومع ظهور الإسلام تطور مفهوم الأنساب واستقام، وعرف العرب والمسلمون التاريخ العلمي حين ولجوا التاريخ من أوسع أبوابه . فقد بث القرآن الكريم في أهله وعياً ناقداً بالتاريخ حين أمرهم بتدبر أحوال الماضين، وأصبح للتاريخ قيمة أخلاقية ربطت الماضي بالحاضر وبالمستقبل . وأن سعي الإنسان في هذه الحياة الدنيا سوف يُرى في الحياة الآخرة . ونشأ عند المؤمنين بهذه النظرية شعوراً مؤكداً بما يمكن أن يسمى بتاريخ المستقبل . فالتاريخ في محصلته النهائية هو حصاد اليوم من غرس الأمس الإنساني، فإذا عرفنا مسبقاً حصاد الغد بشكل مؤكد وجُب علينا أن نعد اليوم بذور ذلك الحصاد ونتعهده ونرعاه .

لم يكن في الأميين الذين عاصروا فجر الإسلام من يحتفظ بوثيقة مكتوبة،ولم يكونوا يكتبون غير القرآن . فقد ورد عنه ﷺ : من كتب عني غير القرآن فليمحه . ويبدو أن الرسول ﷺ قد خشي من اختلاط حديثه عند الناس بما يتنزل عليه من وحي . فظل القرآن منذ ذلك العصر الباكر محفوظاً في الصدور والسطور . أما الأحاديث الشريفة فقد ظلت في الصدور غير مكتوبة، وأصبحت تروى، فقد أدرك المسلمون قيمتها كمصدر أصيل مؤكد من مصادر الفقه والتشريع .

وحين تم للمسلمين جمع القرآن واعتماد مصحف عثمان ﷺ وما عادوا يخشون تداخل الأحاديث في الوحي، أخذوا يفكرون في تدوين الأحاديث والسيرة والمغازي والتراجم بعدئذ وذلك خشية مما قد يداخل الأحاديث بالزمن من الأقوال المأثورة والحكم، ومما قد يدخله إليها أصحاب الهوى والأغراض . وبهذا دخلت الرواية في تدوين التاريخ الإسلامي .

وتختلف الرواية الإسلامية التي اعتمد عليها المسلمون في تدوين التاريخ اختلافاً جذرياً عن كافة الروايات غير الإسلامية السابقة لها واللاحقة، فقد ولدت الرواية الإسلامية بمناهجها . ارتبط التسجيل هنا بالدين، فالسُنة هي الرافد الثاني للإسلام، وكان على جامعي الروايات أن يدققوا في اللفظ والمعنى ويتوخوا في التسجيل غاية الحذر . ووضع العلماء المسلمون الأوائل لأصل الرواية ضوابط الجرح والتعديل وأعتدّوا باتصال السند . وفي اعتقادنا أن الرواية الشفهية في عالمنا المعاصر، إذا تهيأ لها الالتزام بتلك الضوابط الصارمة التي وضعها الأوائل، فإنها يمكن أن تصبح المقدّمة على غيرها من الوثائق الأخرى المعتمدة في كتابة التاريخ، وتغدو المعيار الذي يمكن أن تقاس به كافة الوثائق المسجلة وغيرها .

اكتسبت الرواية الشفهية بحكم الجرح والتعديل واتصال السند مكانة خاصة لدى المؤرخين المسلمين في الفترة التي شهدت بداية تسجيل تاريخهم، وأصبحت أمانة الكلمة المروية والثقة فيها تفوق

الثقة في أي مصدر مسجل وأصبح التاريخ : "يروى على الحرف" أي يحفظ عن ظهر قلب .

أخذ طلائع المؤرخين المسلمين من كتّاب السيرة على عاتقهم تسجيل كافة ما يتصل بشخصية الرسول الكريم ﷺ ، وجهدوا قدر طاقتهم في أن يكون تسجيلهم أميناً . لم يجلس أولئك النفر إلى مكاتبهم يحللون الوثائق المسجلة، إنما راحوا يسيحون في البلاد يلتقون مع كل من كان له صلة بأحداث العصر، شارك في الأحداث أم كان من سلالة المشاركين فيها أو من خدمهم ومواليهم، يستنطقونهم بعد إخضاعهم لمنهج الجرح والتعديل . وكانوا لا يأخذون عمن يدعو الناس إلى هواه، ولا من يكذب في أحاديثهم، ولا من شيخ خرف، ولا من سفيه . كان أولئك الرجال يتحرون في أشخاص الرجال ويبالغون في التحري، وكان أكثرهم يقوم بزيارات ميدانية للأماكن التي شهدت الأحداث والوقائع ويطابق بين الأقوال ومعطيات الأماكن .

ظل هذا المنهج معتمداً في كتابة العلوم الإنسانية عند المسلمين غير أن ضوابط الجرح والتعديل أخذت تتراخى قبضتها هوناً ما . فقد كان التمسك بها يكلف المؤرخ جهداً أكبر من جهد كتابته للتاريخ، أما اتصال السند فما عاد مع تنامي الزمن وبُعد الراوي زمنياً عن المصدر الأول ممكن التحقيق إلا بكثير من الجهد . وفي هذا الصدد يقول ياقوت بأنه ينقل عن المصادر بكل دقة وأمانة "سواء كان المنقول حقاً أم باطلاً فإن الصدق في إيراده" . وعلى الرغم مما تميز به ياقوت من صدق وأمانة لأنه كان غالباً ما ينقل عن صادقين ذوي معرفة وخبرة ودراية

يثقون بما يدلون به إلا أنه وأمثاله من المعاصرين له واللاحقين، فارقوا فيما نرى – المنهج الإسلامي القديم في كتابة العلوم الإنسانية، بشكل أو بآخر، فقد جافوا روح المنهج، وإن لم يجافوا شكله . فروح المنهج تقتضي المقارنة والمقابلة والتحري، أما شكله فهو المتضمن تسجيل رواية الراوي . جاء في الفصل السادس من كتاب عبد الباسط بن موسى محمد العلموي المتوفى في دمشق (٩٨١هـ/١٥٧٣م) المفيد في أدب المستفيد الذي هو في حقيقته اختصار لكتاب الدر النضيد المأخوذ عن تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم الذي كان قد ألّفه ابن جماعة في ١٢٧٣م، القول بأن كل من يكتب كتاباً عليه مقابلة (مقارنة) كتابه بأصل موثوق : "فالمقابلة متضمنة للكتاب الذي يراد النفع به" . قال عروة بن الزبير لابنه هشام – رضي الله عنهما – : كتبت ؟ قال : نعم . قال : عرضت كتابك ؟ أي على أصل صحيح . قال : لا . قال : لم تكتب . وقال الإمام الشافعي ويحيى بن أبي كثير : من كتب ولم يعارض، أي يقابل، كان كمن دخل الخلاء ولم يستنج .

ظل المنهج الإسلامي في أمانة النقل معتمداً في كتابة التاريخ وطوره آخرون بالوعي المكتسب، وظهر في البلاد الإسلامية مفكرون، في مقدمتهم ابن خلدون، لم يرفضوا اتصال السند ولا ضوابط الجرح والتعديل، ولكنهم رأوا ضرورة عدم التقيد الصارم بهما إذا وافقت الكتابة المذكورة طبائع الأشياء . جاء عند هؤلاء النفر بأن تلك الضوابط الصارمة كانت ضرورية في تسجيل السنة وأخبار الرسول ﷺ لاتصالها بلب الدين، وكانت غايتها افعل أو لا تفعل، أو هكذا كان دأب الرسول ﷺ ومنهجه الذي يجب على المسلمين أن يتبعوه ويتأسوا به .

أما المسائل الإنسانية الأخرى المتصلة بلب الحياة العامة فليس المقصود منها الاتباع أو الترك، فنحن أمام أفعال تتطلب النقد وتخضع للتفسيرات العقلية .

وعلى الرغم من هذا التطور النظري الذي جاء به ابن خلدون والذي لم يستطع هو نفسه الاستجابة لمتطلباته ، وعلى الرغم من أن الذين جاءوا بعد ابن خلدون تمسكوا به نصاً وإن لم يستطيعوا في الغالب العمل به، فقد ظلت أمانة النقل السابقة لعصر ابن خلدون تسري في المؤرخين اللاحقين الذين كانوا يعتدّون دائماً بذكر أسماء الرواة ويترجمون لهم أحياناً . قال المقريزي (ت ١٤٤٢م) عن مصادره في خطط مصر أنه استعان بالمصنفات الأدبية، وبالمعلومات التي عمل على جمعها من أساتذته ومعاصريه من العلماء، واستند على مشاهداته الخاصة ومعايشته لأحداث عصره : "أما الرواية عمن أدركت الجلّة والمشايخ فإني في الغالب والأكثر أصرح باسم من حدثني إلا أن لا يُحتاج إلى تعيينه أو أكون قد أنسيته، وقل ما يتفق ذلك . أما ما شاهدته فإني أرجو أن أكون، ولله الحمد، غير متهم ولا ظنين" .

ويمكن لنا هنا أن نقول أن الأصل الذي ثبتت عليه كتابة التاريخ الإسلامي هو الأمانة والصدق، فقد كان كل من يكتب في التاريخ الإسلامي يقيد نفسه بهما . فإذا أتيح للمؤرخ أن يستمد معلومته من شاهد عيان يسميه للقارئ فقد كان ذلك أدعى له من الرجوع إلى أصل مكتوب، أما إذا أتيح للمؤرخ أن يكتب عن معايشته للأحداث التي شاهدها أو اشترك فيها فإن على من يريد الاعتماد عليه أن يستوثق

نقدياً من صدق ذلك المؤرخ ثم يأخذ منه ما يشاء . يقول السخاوي أن كتاب الصولي : تاريخ الوزراء "كتاب فاضل" لأنه مؤلفه كان شاهد عيان لكثير من الحوادث التي يأتي على ذكرها في مصنفه هذا . أما الصولي نفسه فيقول عن منهجه في كتابة أخبار الراضي "والمتقي فيما كتبه عن الخليفة الراضي : "ما حكيت من ألفاظه التي جرت وما أحكيه من كلامه بعد، فهو كما أحكيه أو شبيهه أو مقارب، وإذا كنت لا أقدر أن أحفظ لفظه فأنا أحفظ معناه" .

إلى هذا الحد البعيد بلغت الدقة في الرواية الشفهية في تراثنا التاريخي فلا ريب أن كانت الرواية الشفهية أصدق من غيرها . أما الروايات الأخرى فتقارن بها فهي التي يعول عليها في هذا الصدد . وثق المسلمون — حتى العامة — في الرواية الشفهية أكثر من المسجلة، وكانوا يؤثرون التعليم الشفهي على العلم المحصل من الكتب، ويعتقدون — صواباً — أن الأخذ عن معلم خير من الأخذ عن كتاب .

اتسعت مع الزمن الكتابة التاريخية لدى المسلمين فتطورت ثم ترهلت وذبلت بعدئذ، شأنها شأن المجتمعات الإسلامية . وحين وفد الغرب مستعمراً للشرق أو مهيمناً عليه بصورة أو بأخرى، قدم مؤرخوه لأهل البلاد المغلوبة مناهجهم فتلقفوها على علاتها . وللأسف فقد أنكر أكثر الرعيل الأول من المؤرخين العرب والمسلمين الوثيقة الشفهية، وغدت الوثيقة المكتوبة عندهم أقوى من الوثيقة المنطوقة، فجانبهم الصواب حين أغشاهم بريق الغرب . فالمؤرخون الغربيون — حين أنكروا الوثيقة المنطوقة — استجابوا لمناخهم الثقافي . فالرواية الشفهية

على امتداد استعمال الغربيين لها لم تعتمد عندهم أبداً على منهج علمي قوي تقوم عليه خلافاً لما كان سائداً في العالم الإسلامي الذي اعتمدها بضوابط تجعل درجة الثقة فيها عالية ودرجة الصدق فيها لا يتطرق إليها الشك . ولهذا فكل عمل تاريخي اعتمد فيه الغرب على الرواية عبر تاريخه داخله الغرض والهوى . أما كل عمل تاريخي في الشرق المسلم عبر تاريخه فقد جردته الضوابط المنهجية القاسية من الغرض والهوى، ولم تعتمد من المروي إلا الصادق المجرد من الغرض . هذا إضافة إلى اعتبارات قومية ووطنية كانت تحرك تاريخ العرب ما كان يعرفها تاريخنا الإسلامي .

فأكثر المؤرخين الأمريكان – كانوا ولا يزال العديد منهم – ينكرون دور الرواية الشفهية في كتابة التاريخ . وتنصب اعتراضاتهم على أن مثل هذه الروايات تؤخذ عادة من أفواه الأميين، ولا يهم – في تقديرهم – إن كان الأميون يتذكرون الحوادث أو لا يتذكرونها، ولكن الأمي – كما يقولون – لا يدرك القيمة التاريخية للحوادث التي يرويها . وينفي هؤلاء النفر القيمة التاريخية لكافة المتواترات اعتماداً على حجة لا تثبت أمام التمحيص . تقول هذه الحجة أنه ليس للإنسان البدائي إحساس حقيقي بالتاريخ وهذا عندما ينعدم الإحساس الحقيقي بالتاريخ في جماعة ما فإن الشهادات التي يدلون بها قد يكون لها مردود خطير إذا استعملها المؤرخ في كتابة التاريخ . ولا ضير أن نشير هنا إلى أن هذا الرأي العنصري المتحيز نبع أساسا من إنكار أصحابه لكافة متواترات الجماعات البدائية التي سادت القارة الأمريكية قبل وصول الرجل الأبيض إليها، ومن محاولة هذه الجماعة أن يكون العالم الجديد

جديداً تماماً غير مشدود إلى ثقافات عناصر بدائية أصيلة أو عناصر بدائية مجلوبة عن طريق الاسترقاق من أفريقيا وغيرها .

وبالقطع فإننا - في العالم العربي الإسلامي - حين نتحيز ضد الرواية الشفهية انحيازاً "للتحديث" إذا جاز التعبير نخطئ كثيراً فليس في المجتمع العربي والإسلامي انقطاع قيمي أو أخلاقي، أما الإحساس بالتاريخ فهو موجود حتى عند الأميين في مجتمعنا . فالأمية في المجتمعات المسلمة لم تصل أبداً إلى حد البدائية . أما ذاكرة الحفظ وأمانة الرواية ومعاني القيم وما إلى ذلك من المتلازمات فهي عند الأميين في مجتمعاتنا أصيلة ونشطة . فمن في هذه المجتمعات من الأميين لا يحفظ قدراً من القرآن لأداء صلاته، ومن منهم لا يدرك معاني اليسير الذي يحفظه، ومن الأميين أيضاً ما لا يحفظ من الشعر، خاصة العامي منه والشعبي والمحلي، قدراً كبيراً، فالشعر سليقة عربية، وكم من أمي في هذه المنطقة من العالم لا يحرك شعره الذي يقرضه أشجان الصفوة المتعلمة !

وقد رفض بعض المؤرخين الأوروبيين الرواية الشفهية في كتابة التاريخ اعتماداً على أن هذه الرواية الشفهية تنتقل عبر الأجيال المتطاولة من شخص إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، ثم ما تلبث هذه الرواية أن تفقد قيمتها التاريخية . فالأقوال مثلها مثل كل كائن حي تنمو وتتبدل وتشيخ . وكل شخص ينقل روايته عن آخر يضيف إليها ويعيد تأليفها ويضفي عليها عناصر الخيال إشباعاً لرغبته الشخصية في التأليف والإبداع، ووصولاً إلى ما يروق سامعيه وإحداث التأثير الذي

يتوخاه، هذا بالإضافة إلى التغييرات التي تدخل إلى الرواية المتنقلة من عصر إلى عصر استجابة لروح العصر .

ولا نعترض على هذا الرأي الذي لا نأخذ عليه إلا المبالغة والعمومية . فالرواية الشفهية أشكال عدة وأصناف متجانسة وغير متجانسة . فلا يصح أن يبنى مثل هذا الإنكار على تسطيح الحقائق .

فالمتواترات (Oral Traditions) هي الرواية الشفهية التي تعني كل قول مرسل يُعنى بالماضي، نثراً كان ذلك القول أم شعراً . وهذا الإرسال هو الأمر الذي يميزها عن الوثيقة المسجلة المقيدة بالكتابة، وبالقصد من الكتابة . كما أنها تختلف في طبيعتها عن الوثيقة المادية التي يمكن أن يستعملها المؤرخ مصدراً من مصادر معرفة الماضي .

وفي اعتقادنا أن الرواية الشفهية لشاهد العيان لا تدخل في المتواترات ولا في الاعتراضات المذكورة آنفاً . فهي ليست منقولة من زمن إلى آخر، ولا من لسان إلى آخر . ومن ثم فإن مثل هذه الرواية الشفهية تخرج تماماً عن دائرة المتواترات التي تتمثل بشكل أساسي في الكلام المنقول عن مصادر مسموعة ليس للراوي فيها إلا فضل النقل . وبناءً على هذا يمكننا القول بأن مثل هذه الرواية الشخصية لشاهد العيان ليست من المتواترات إنما هي خبر من الدرجة الأولى يجب على المؤرخ أن يتعامل معه بعد تمحيصه ونقده بما هو أهل له من الاعتماد .

تعد الشهادة الشفهية، أو الخبر من الدرجة الأولى، مهم تماماً في دراسة التاريخ المعاصر أو التاريخ الحي الماثل .

والشهادة الشفهية مهمة بصفة خاصة حين تتصل بتاريخ الخليج العربي والأقطار الأخرى التي ينشط فيها فعل التاريخ بالطفرة الاقتصادية الكبيرة والقفزات الواسعة في المجالات التعليمية والحضارية المختلفة خاصة في المجال التعليمي . ولربما جاز لنا هنا أن نثبت شهادات بعض الشهود العيان التي وقفت عليها عرضاً .

فقد حدث أن أبديت لأحد الزملاء من أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإمارات إعجابي باخضرار بلدة العين . وكان مما أثار دهشتي إجابته بأنهم قبل امتداد هذه الخضرة ما كان لهم أن يحتسوا الشاي في منازلهم إلا مخلوطاً بذرات الرمال التي كانت تجد طريقها إلى داخل الكوب . وحدثني صديق آخر من المهتمين بالدراسات الخليجية من العاملين في مجال حفر الآبار، أنه حين تم تفجير أول بئر ارتوازية في العين تدفقت عليهم مع تدفق المياه كل البادية برجالها وإبلها وطيورها وثعابينها وعقاربها وكافة هوامها . ولربما نستطيع أن نثبت شهادة عرضية ثالثة لشاب سألته عن شارع معين في أبوظبي، وكنت أدرك أنه أقام في هذه البلدة لفترة طويلة، فأجابني بأنه لا يعرفه لأنه غادر أبوظبي في الفترة الأخيرة لفترة سنتين عاد بعدهما ليجد أن كثيراً من ملامح المدينة قد تغير تماماً .

وعليه نعتقد أن الشهادات الشفهية لشهود العيان التي قد لا تجد سبيلها للتسجيل مهمة يجب على المؤرخ، خاصة حين يدرس الجوانب الحضارية أو الاجتماعية أو العمرانية المعاصرة، أن يسعى إلى تسجيلها . فكل جملة من الجمل الماضية التي جاء بها الشهود

المذكورون تصلح لأن تقوم عليها خطة بحث لموضوع في التاريخ أو لموضوعات عدة .

أطلقنا على مثل هذا الخبر المباشر صفة الخبر من الدرجة الأولى، وهناك — في تقديرنا — خبر من الدرجة الثانية لا يدخل أيضاً في دائرة المتواترات . ونقصد بالخبر من الدرجة الثانية الرواية التي يرويها من لم يدرك الحدث ومن لم يساهم فيه ولكنه وجده عن والده أو جده أو أحد أقربائه أو معارفه أو جيرانه . ونستطيع أن نعامل الخبر من الدرحة الثانية معاملة الخبر من الدرجة الأولى وذلك بإضافة شرطي اتصال السند والتحقق من أهداف الراوي الأول لروايته .

أما الخبر من الدرجة الثالثة فإننا نطلقه على ذلك الخبر الشائع على ألسنة الناس الذي لا يستطيع الراوي أن يثبت مصدره، فيمكن أن نعده من المتواترات . فهو يختلف عن الخبرين من الدرجة الأولى والثانية في أمرين هما : عمق الامتداد الزمني للخبر، ثم عدم معرفتنا للشخصية التي روت الخبر أولاً . واعتماداً على هذا الرأي ندخل الخبر الثالث في دائرة المتواترات التي هي في جملتها ذكريات من الماضي انتقلت عبر ذاكرة المجتمع على ألسنة الناس إلى الحاضر . وفي اعتقادنا أن مثل هذا الخبر من الدرجة الثالثة لا يجوز اعتماده مصدرا للتاريخ ما لم تؤيده شواهد أخرى تكون قد أثبتت صدقها . فالمؤرخ لا يتفق له أن يسبغ ثقة مسبقة على نوع من الوثائق دون النوع الآخر، فهو لن يأخذ الوثيقة المنطوقة على عواهنها ولن يقبل الوثيقة المسجلة على علاتها .

وحين نتجاوز الخبر بدرجاته الثلاث ونخرج إلى المأثورات التي هي لب المتواترات، يتحتم على المؤرخ أيضاً أن يجري مقارنة وثيقته المسجلة بهذه المأثورات وينبذ منها ما يتعارض مع روح هذه الروايات . ولا مندوحة هنا من القول بأن كافة هذه المأثورات وجدت طريقها إلى الحفظ في صدور الرجال وعاشت فيها أجيالاً بعد أجيال لأنها تمثل تعبيراً صادقاً للنسيج الاجتماعي في المنطقة المعينة، فهي — في نهاية الأمر — التي تميز ثقافة هذه المنطقة عن غيرها من المناطق الأخرى . ففي هذه المأثورات تسود قيم المجتمع التي يؤمن بها أو التي يتطلع إلى تحقيقها .

وفي الحقيقة فكل قول أو فعل يرثه مجتمع ما من الماضي يحمل دفقاً من المعلومات عن ذلك الماضي حتى وإن داخَل النسيج ما يداخله من الأسطورة والخرافة والإضافة . فالرواية الموروثة في المجتمع لها شكل ولها مضمون . ويمكن لكل باحث في التاريخ أن يرفض شكل الرواية لأن شكلها قد يختلف بالرواية من زمان إلى زمان بما قد يداخلها من إضافات عفوية أو متعمدة، كما يمكنه أحياناً أن يرفض الأخذ بأسلوب عقدة الرواية وطريقة حبكها غير أنه لا يستطيع أن يرفض المضمون أو الموضوع العام أو روح الرواية وما تعبر عنه من أهداف أخلاقية وقيم تظل ثابتة في المجتمع الذي يظل يردد تلك الرواية . وما كان لهذه الرواية أن تعيش في ذاكرة المجتمع إلا لأنها تمثل تعبيراً عن بعض أغراضه وتجسيدا لتاريخ الفكر والثقافة والفلسفة فيه . وإذا كان من غير المتيسر لنا أن نستنطق المتواترات لتحكي لنا تاريخنا السياسي والاقتصادي دون الاستعانة بأي شكل آخر من أشكال

الوثائق الأخرى فإننا نعتقد بأن تطورها وازدهارها شكلاً ومضموناً يمكن أن يعتبر مصدراً قيِّماً من مصادر التاريخ الثقافي (Ethonohistory) . ويستطيع المؤرخ أن ينظر إلى كل رواية من هذه الروايات السائدة في المجتمع لتحديد قيمتها التاريخية من عدة زوايا أهمها الغرض الذي تخدمه هذه الرواية في المجتمع الذي سادت فيه . وعلى المؤرخ أن ينظر أيضاً إلى حجم انتشار الرواية في المجتمع المعني والطبقات الاجتماعية التي تتمسك بروايته أكثر من غيرها، ثم المنحنى السيكولوجي للمجتمع تجاه هذه المتواترة .

تأتي الشعارات التي ترفعها القبائل والعشائر والعائلات الكبيرة "ونخوة" الأفراد بشقيها النثري والشعري في أعلى قائمة المأثورات أو المتواترات في هذه المنطقة، وتمثل — بعد النقد — مصدراً قيماً للتاريخ . فتحليل "نخوة" قبيلة ما أو عشيرة ما يكشف عن حجم ونوعية ارتباطها بالقبائل والعشائر الأخرى في المنطقة وخارجها وكثيراً ما نجد النخوة ذاتها عند قبيلة أو عشيرة تبعد عن الأخرى مئات الأميال مما يدل على انشقاقات أو هجرات من هذه المجموعة القبلية أو تلك وكثيراً ما تكشف "نخوة" الشيوخ عن قيم أخلاقية يعيشها ذلك الشيخ أو يتطلع إليها . وهناك الشعر الملحمي أو الغنائي الذي يؤدى في "العرضة" أو "العيالة" وغيرها من الرقصات التي تكشف عن استعراض القوى والافتخار بالمآثر . وعلى الرغم من أن هذه الملاحم الغنائية العربية الشعبية لا يتجاوز عدد أبياتها غالباً أصابع اليدين إلا أنها في

موضوعاتها ومعانيها لا تكاد تختلف عن الإلياذة، إحدى مفاخر الغرب التاريخية . هذا بالإضافة إلى أن العديد من القبائل لا تزال تحتفظ بأجزاء من تاريخها في صورة أغنيات وأهازيج تؤدى مع الرقصات أو بدونها فتثير في الرجال الحماسة بما تتضمنه من معاني الفروسية والبطولة . غير أن هذا الشعر وإن كان في حد ذاته من المصادر التاريخية الثرة، غالباً ما تخالطه الأوهام والتخيلات الناجمة عن المبالغة والتضخيم والتهويل، إلا أن المؤرخ يستطيع أن يتعامل مع مثل هذا الشعر بقلم ناقد . وتبقى هناك خطورة أخرى في استعمال هذا الشعر في كتابة التاريخ . فمثل هذه الأشعار قد تنكأ في المجتمع جراحاً قديمة وتثير الإحن والثارات بين القبائل، وتحرك شجوناً طمرها الزمن وإن لم يتجاوزها تماماً . ونعتقد أن مثل هذه المصادر الحساسة يجب على المؤرخ تسجيلها دون نشرها، ففي الزمن المقبل، مع تنامي التعليم وتتابع التطور، يمكن أن تبرز هذه الأحداث المسجلة غير المنشورة معلماً للمجتمع يسبر به غور مسيرته القاصدة لتحقيق الرفاهية والسمو فوق الممارسات القبلية .

ويرتبط بالأغاني والأهازيج ورقصات "العيالة والعرضة" وماشاكلها أغاني البكائيات أو النواح . فمع كل فقْد جلل في القبيلة أو المنطقة تنطلق ألسنة الشعراء بالرثاء . فإذا قدر لهذه المراثي التي صاغها الإبداع الشعبي على وجه الخصوص أن تعيش على ألسنة الناس زمناً حتى تصبح في المتواترات فإن الأخذ بها — في ظننا — في كتابة التاريخ

جائز والقياس عليها واجب، فمعانيها لم تحفظ وتخلد في الذاكرة إلا لأنها من قيم المجتمع، وهي في تقديرنا — روحاً وإن لم تكن نصاً – أحرى بالتصديق من الوثيقة المسجلة التي لا تتسق مع المعاني المذكورة . فالمؤرخ لا يستطيع أن يطرح جانباً شهادة مجتمع بأسره ويأخذ بشهادة أخرى لفرد لا لشيء إلا لأنها مسجلة . ويمكننا أن نلحق بهذه الغنائيات أيضاً القصص الشعري التي صاغته قرائح أمية مبدعة أخذته عنهم طوائف أخرى راحت عبر الزمن تلقيه في الأسواق والموالد والمقاهي والأماكن العامة . وفي الحقيقة فإن مثل هذه القصص الشعرية ليس مقصوراً على المناطق العربية والأفريقية التي ينتشر فيها انتشاراً واسعاً فقد عرف في أوروبا خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما عرف أيضاً في الولايات المتحدة الأمريكية وساد لفترة حتى بعد ظهور الصحف وتزايد عدد القراء . فقد كانت كل فاجعة تقع في ذلك المجتمع وكل أخبار الفيضانات والعواصف، لا بل حتى حوادث تصادم القطارات تصيغها القريحة الشعبية شعراً ويروى في الأماكن العامة .

ويرتبط بهذا النمط أيضاً كل القصص والحكايات التي تسود المجتمع، والأغاني الشعبية للأفراح، والحكايات الشعرية والأهازيج التي تهدهد بها الأم صغيرها عند النوم أو تحكيها الجدة للصغار، فهذه المتواترات جميعها هي أوعية تصب فيها رموز هامة تعكس القيم الجمالية والفنية والأخلاقية السائدة في المجتمع، وتحدث عن آماله

وطموحاته، وتكشف للمؤرخ العديد من النواحي ذات الطابع المحلي، وتمثل فوق هذا وذاك، سِفراً متكاملاً من التاريخ الثقافي للمنطقة . وفي اعتقادنا أن كل قصص المجتمع، مهما كان نوعه، حتى ذلك الذي تخالطه الأساطير والماورائيات وقصص الجن والأشباح والغول والعنقاء، وقصص الحيوانات المختلفة التي قد تسود هذه الحكايات يجب أن تنال اهتمام المؤرخ . فكل تلك الحكايات وما فيها من الجن والأشباح والحيوانات، هي في نهاية الأمر قصص شارحة أو مفسرة من حيث جوهرها ترمي إلى شرح علة أو تثبيت غاية قِيَمِيَّة دفينة في وسط النسيج الخرافي وتحدثنا في بعض جزئياتها عن بقايا متخلفة عن مراحل ثقافية ماضية لعلها كانت واسعة الانتشار في ذلك المجتمع فيما مضى من الزمن . ويقع على المؤرخ حين يقارن الوثيقة المسجلة مع مضامين هذا التراث ويجد أنها لا تتسق مع روحه أن يتردد كثيراً في قبول تلك الوثيقة .

أما (الأمثال والألغاز) السائدة في المجتمع فهي ذات قيمة كبيرة في كتابة التاريخ، بل يمكننا القول بأن المثل يقوم في الذهنية الشعبية مقام التاريخ لأنه يربط الماضي بالحاضر . فالأمثال في حقيقتها جمل حفظتها ذاكرة المجتمع وتظهر عادة للتعبير عن وضع حاضر كان له نظيره في الماضي . والخاصيتان الأساسيتان في المثل هما الطابع التعليمي من حيث الموضوع والاختصار من حيث الأسلوب أولاً ثم التركيز على الهدف الذي هو تعليمي الطابع . وأبرز ما في المثل أنه ليس نتاج ذاكرة

جماعية إنما هو صياغة عقل فرد واحد نتيجة لموقف معين . ولا يستطيع المؤرخ أن يحدد الزمن الذي ولد فيه المثل بشكل محدد بل يكفيه أن يعين لذلك شريحة زمنية واسعة، فالعبرة للمؤرخ ليست بالزمن الذي ولد فيه المثل ولكن في استشعار روح المثل ومضمونه مما يكشف عن عمق ثقافة المجتمع ونوعية القيم والمبادئ فيه، وغالباً ما يشير لنا المثل عن شيء من حكمة المجتمع، وربما كشف لنا عن صور من بيئته وأيكولوجيته، فالحيوانات الأبرز في أمثال نيجيريا على وجه الخصوص هي الأسد والضبع، وفي السودان هي الجمل والصقر والثور والتيس، أما في منطقة الإمارات فهي الصقر والسخلة والتيس، والكلب والدجاجة .

رفض المؤرخون الأوروبيون، حتى حديثاً، الرواية الشفهية بحجة البدائية كما أسلفنا، كما رفضوها بحجة أن تلك الروايات الشفهية لا تكاد تحمل من أصلها الذي انطلقت منه شيئاً، وأنها — في أحسن حالاتها — لا تصلح إلا لكتابة التاريخ الثقافي . ولعلنا قد قمنا من جانبنا بتفنيد تلك الحجج الواهية . وهناك ذريعة غريبة ثالثة لرفض المتواترات في كتابة التاريخ والادعاء بأنه على المؤرخ ألا يلجأ إليها إلا مضطراً . يقول هؤلاء أنه إذا كان لازماً أن يقبل المؤرخ شهادة الوثيقة المروية فعليه أن ينظر إليها على ضوء الوضع السياسي والنسخ الاجتماعي "الراهن" للمنطقة . احتج هؤلاء المؤرخون في هذا الإطار بأن الرواية الشفهية متحيزة دائماً وذلك لأن التحيز مغروس بالضرورة في

كل نسيج اجتماعي أو سياسي في منطقة ما، وأن الأمي أشد ما يكون تحيزاً من المتعلم، مما يجعل الحقيقة غير موجودة في المتواترات، صناعة قرائح الأميين .

وعلى هذا قامت حجة هؤلاء النفر على أن الاعتماد على الرواية الشفهية يجب ألا يكون كاملاً شاملاً بمعنى ألا يمكن لبحث كامل في التاريخ أن يقوم على الرواية الشفهية بمفردها . أما إذا لم تتوفر للمؤرخ وسائل قياس ومقارنة للمتواترات في المجتمع المعني فعليه أن يقيسها بالمتواترات التي تسود مجتمع الجيران ويسبرها بما يتمكن من الحصول عليه من الموجودات الآثارية وآثار الظواهر الطبيعية، هذا بالإضافة إلى الاستنارة بآراء المثقفين والمستنيرين في المجتمع المعني حول تلك الروايات . وعلى المؤرخ — قبل هذا كله — أن يسقط من حسبانه أية رواية شفهية تظهر تناقضاً صريحاً في نسيجها الداخلي، أو تعارضاً مع حقائق ثابتة، أو مصادر موثوق بها، وعلى المؤرخ أن يستبعد مثل هذه الوثيقة الشفهية من مجال صناعة التاريخ ويضعها في مجال التقاليد الفلكلورية .

ولا يخلو هذا الرأي في تقديرنا من وجاهة ظاهرية لأنه يطالبنا بالتشدد في نقد الرواية الشفهية قبل استخدامها ويحدد للمؤرخ وسائل النقد التي يجب عليه الأخذ بها . ونحن إذا كنا نوافق تماماً على مسألة التشدد في النقد لا نوافق أبداً على تحديد وسائل النقد للمؤرخ الذي يملك — في ظننا — وسائله الخاصة بالنقد التي تلائم كل وثيقة

على حدة . كما أننا لا نوافق أبداً على قصر التحيز على الرواية الشفهية دون سواها من المصادر التاريخية .

ونعتقد بدورنا أن الرواية المسجلة أدعى من غيرها وأقرب للتحيز إذ يجد الراوي وقتاً كافياً لتأنيق روايته، بل إن كاتب الوثيقة ربما حاول بما تهيأ له من علم أن يعمل في تأن على إخفاء آثار التحيز ما أمكنه ذلك . وعليه نجد أن مثل هذا الإنكار للدليل الشفهي فيه تحامل واضح على المعرفة الذاتية بحسبان أنها بنيت على الاعتبارات الشخصية، وهي — بهذه الكيفية — تعد في اعتبار البعض أدنى مستوى من المعرفة الموضوعية . وفي اعتقادنا أن التعامل مع المصادر في صناعة التاريخ هو أمر خاص بصفة كاملة بالمؤرخ الذي يختار وسائله ويحدد مناهجه وصولاً إلى التفسير الصحيح لمصادره المحدودة .

فلكل مصدر في التاريخ، شفهياً كان أم غير ذلك، تحيزه ومحدوديته التي يتطلع المؤرخ أن ينفذ بوسائل النقد إلى ما وراءها . فالمؤرخ لا يعرف من أية وثيقة مكتوبة كانت أم شفهية إلا جانباً محدوداً من الحقيقة التي يعمل على استجلائها باستثمار ملكاته النقدية واستئصال كل ما قد يوجد في الوثيقة من تحيز أو زيف أو كذب . فالماضي الذي يعالجه المؤرخ من خلال وثيقة ما استعصم عنا بستار الزمن الذي ليس لإعادته من سبيل، وبالإنسان الذي رحل عن هذا العالم وليس لاسترجاعه من سبيل، بل إن الأرض ذاتها، ثالثة الأثافي في البناء التاريخي، متغيرة بفعل عوامل التعرية وبفعل الإنسان

. ولا يبقى للمؤرخ إلا أن يتعامل مع كل المتغيرات من خلال محدودية المصدر، أياً كان شكله أو مضمونه . ويدرك المؤرخ الناقد قبل غيره أن التحيز مرتبط بكل خبر مروي، وبكل تاريخ مكتوب، ويدرك أيضاً أن عليه أن يحارب في نفسه - جهد استطاعته - هذا التحيز .

ولربما أنكر جماعة المؤرخين أن يكونوا متحيزين، وهذا الإنكار حق مكفول لهم بالوعي، ولكن ماذا عن اللاوعي ؟ ولنضرب لذلك مثلاً : إذا كتب مؤرخ سوداني أو صيني عن غوردون باشا، ذلك الرجل الذي حمل راية الإمبراطورية البريطانية وغرسها مظفرة فوق هضاب الصين، وفي غابات قلب أفريقيا، وخاض من أجل ذلك في دماء الأبرياء هنا وهناك، وداس على جثثهم، وعبث حتى بمقابر زعمائهم، ألا يرى فيه مثل هذا المؤرخ مستعمراً لئيماً ؟ وهل يرى هذا الرأي ذاته المؤرخ البريطاني أم يرى في الرجل فاتحاً عظيماً ؟ وشتان ما بين الرأيين . وهنا لا أجد - في الوعي - تحيزاً عند أي من هؤلاء المؤرخين المذكورين جميعاً فكلهم على صواب . ويمتد التحيز في التاريخ حتى إلى اللغة التي يستعملها المؤرخ في التعبير عن التاريخ غير المتحيز، فكثير من الكلمات التي يستعملها المؤرخ متحيزة، يتحدث كل المؤرخين عن الاستعمار وهي الكلمة التي تعني بنص الكتاب الكريم إرادة الإعمار . فهل كان امتداد الرجل الأبيض في بلادنا العربية والأفريقية وغيرها استعماراً أم استخراباً ؟ وهل يستطيع القارئ أن يتبين غرض المؤرخ إذا كتب عن الاستخراب البريطاني بدلاً من أن يقول الاستعمار البريطاني

للسودان ؟ ويذهب تحيز الكلمة بعيداً إلى درجة لا يمكن لنا استبار غورها إلا على ضوء أيديولوجية وفكر المؤرخ الذي يظن، ونوافقه الظن، بأنه غير متحيز، فهناك كلمات يستعملها مؤرخ مثل : تحرير ونضال وجهاد، ويستعملها مؤرخ آخر فيقول : إرهاب واعتداء واغتصاب .

تواتر حتى منتصف هذا القرن الإنكار المتكرر لكثير من المؤرخين الغربيين للوثيقة الشفهية والتاريخ الذي يقوم عليها . تبلور في أوساطهم رأي عام يقضي بضرورة التخصص . وأصبحت من ثمة دراسة الحضارات البدائية (أو الشفهية) للأنتروبولوجيين والفلكلوريين بينما التزم المؤرخون كتابة تاريخ الأمم الأرقى والمجتمعات التي تكتب، والوثيقة المسجلة . ومع كل ذلك الإنكار فقد ازداد منذ العقود الأولى من هذا القرن المنصرم اعتماد الحكومات الغربية الاستعمارية على التاريخ الشفهي القائم على الوثيقة الشفهية !

أخذ الموظفون الرسميون العاملون في المستعمرات ومناطق النفوذ ينقبون في التاريخ غير المكتوب لهذه البلاد بهدف تفهم دوافع الإنسان في هذه المناطق ودراسة اتجاهاته . وراح هؤلاء الموظفون يسجلون الشهادات الشفهية، ويتدارسون متواترات القبائل والجماعات، ويعالجون على ضوء هذا التاريخ المشكلات الإدارية والسياسية التي تعترضهم في المستعمرات . ونشأ جراء ذلك نوع من التاريخ أقامه رسميون لا يتمتعون بالمزايا اللازمة لصناعة التاريخ . ففي منطقة الخليج العربي، على سبيل المثال، لدينا أسماء بارزة أصبحنا للأسف

نعتمدها في كتابة تاريخ الخليج والجزيرة العربية دون تردد حتى غدت مصادر عامة في كل بحث للتاريخ في هذه المنطقة . فكتب مايلز وديكسون وولسون وفيلبي كلها كتب تقوم على الوثيقة الشفهية . أما إذا توغلنا في وثائق بومباي والمختارات منها التي هي من أهم مصادر لوريمر، أشهر المصادر في تاريخ الخليج العربي، فنجد أنها تقوم على قاعدة شاملة من التاريخ الشفهي مع إضافات نادرة من التقارير العسكرية والإدارية . أما إذا قيض لنا أن نتعامل مع الوثائق الخاصة بوكالات الخليج ووثائق الوكلاء الوطنيين "المحليين" فنجد أنها قد اعتمدت تماماً على الرواية الشفهية . تبدأ دائماً موضوعات هذه الوثائق بالقول : "خلال زيارتي إلى منطقة . . . التقيت شيخها . . . قال لي . . . وقلت له . . . وحدثني أيضاً الوكيل الوطني . . . وأجاب حين سألته . . . وجاءني طبيب البعثة الأمريكية الذي كان في زيارة منطقة . . . وقال أنه عرف من . . . أن . . . "وهكذا يجد المؤرخ نفسه غارقاً في خضم من الوثائق الشفهية، أو إن شئت قل التاريخ الشفهي .

أما كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزيرة العربية والتي هي عمدة في تاريخ هذه المنطقة فهي في تقديرنا لا تزيد عن تاريخ شفهي صاغه هؤلاء الرحالة عن ألسنة الذين قابلوهم أو رافقوهم مع خليط من التجارب الشخصية والتحامل المقصود وغير المقصود .

وهكذا أصابت الوثيقة الشفهية والتاريخ الذي يقوم عليها بصفة شاملة قبولاً لدى الحكومات الاستعمارية خاصة في بريطانيا وفرنسا

واعتماداً متنامياً دفع بالأكاديميين الغربيين بعدئذ إلى ولوج هذا المضمار منذ الأربعينات . دخل اعتباراً من تلك الفترة عدد من المؤرخين المحترفين الأكاديميين إلى مضمار الوثائق الشفهية في أفريقيا بصفة خاصة وراحوا يغشون تلك المناطق من القارة "المظلمة" يتلمسون الحقائق اللوجستية في حياة الناس يتلقفونها من شفاههم وأصابوا في هذا المضمار نجاحات كبيرة، رغم التحفظ الذي كان يمارسه العديد من الرواة الوطنيين في كثير من الأحيان، فقد كان البعض من هؤلاء الأخيرين يقولون في غير مواربة : أنتم أيها الأوروبيون لا تحدثوننا بأسراركم فلماذا نحكي لكم أسرارنا ؟ .

ومع بداية الخمسينيات جرى في كافة الجامعات الغربية الاعتراف بالتاريخ الشفهي والرواية الشفهية وعقدت في العديد من تلك الجامعات الندوات والمؤتمرات الخاصة بهذا التاريخ . واستعان هؤلاء المؤرخون بالرواية الشفهية للشاهد العيان ولكنهم اعتمدوا بصورة أكبر على المتواترات، ورغم الاختلاف بين هذين الشكلين المذكورين إلا أنهما أصبحا يعرفًا بالتبادل بالتاريخ الشفهي (Oral Histography) .

نخلص إلى القول بأنه يجب علينا أن نعتمد في تاريخ الخليج والجزيرة العربية على الوثائق الشفهية والمتواترات ونجعل منها، بعد نقدها، الأساس الذي تسبر به الرواية المسجلة، وذلك لعدة اعتبارات عامة وخاصة .

تتركز وظيفة المؤرخ في أمرين أساسيين وهما : رواية ما تيسر له من تاريخ التطور البشري، وحراسة تراثه القومي . ونجد أن تراثنا العربي الذي يتحتم علينا حراسته يقوم على الرواية الشفهية ، وكما نجد كذلك ملكة الحفظ في هذه المنطقة قديمة متوارثة أكدها فينا بعدئذ الدين الإسلامي .

ومن الاعتبارات العامة أيضاً أن قدراً يسيراً فقط مما حدث في ماضي هذه المنطقة قد تمت روايته للرسميين البريطانيين وللرحالة الأجانب المختلفين، وأن جزءاً فقط مما تمت روايته ، وهو الجزء الذي يهتم بخدمة أهدافهم، قد جرى تسجيله، وأن جزءاً فقط مما وجد طريقه إلى التسجيل قد تم حفظه وفهرسته وحفظته لنا دور الوثائق . ونجد أن اهتماماتنا كمؤرخين عرب أو خليجيين تتركز في مجالات ربما ما كانت من اهتمامات المؤرخين الرسميين . وعلى ذلك نجد أن "توطين" المعلومة أميز لخدمة أهدافنا التراثية وأوفق لنا من التقاطها من كتابات الآخرين .

ولا مندوحة من القول هنا إننا نعرف الكثير من التفاصيل في التاريخ الإداري والسياسي للخليج من وثائق الرسميين البريطانيين وغيرهم . ولكننا نجهل جهلاً، يكاد أن يكون مطبقاً، الحياة الاجتماعية التي لا نكاد نجد لها وثائق إلا من الرحالة الأجانب، ومثل هذه المعلومة ، كما ألمحنــا سابقاً، يكاد يخنقها التحيز .

وتختلط الاعتبارات الخاصة مع العامة حيث نجد أن التاريخ الشفهي للخليج الذي سجله لنا هؤلاء المؤرخون الرسميون كانت له أهدافه التي تتركز في إجراء السياسة الإدارية والسياسية في المنطقة وإهمال ما دون ذلك . فهذه الوثائق – على وفرتها – ناقصة ومبتورة . وعليه يقع على مؤرخي الخليج أن يتعاملوا ما وسعهم التعامل مع الوثائق الشفهية والمتواترات الخليجية بعد نقدها لسد الفراغ وتصحيح المكتوب . ونضيف إلى ذلك أيضاً أن اختلاف الدين واللغة وعدم الثقة في الإداري البريطاني وغيره من الأجانب، ربما دفعت البعض من الرواة إلى الإدلاء بشهادات مغلوطة أو ناقصة .

أما أهم الاعتبارات جميعاً التي تجعلنا نتمسك بالرواية الشفهية في كتابة تاريخ الخليج فهي أن شكل تاريخ الخليج يتبدل بسرعة هائلة وذلك بما أسبغ الله على المنطقة من نعمة الثروة المادية وعلى قادته من فضل الإنفاق، مما أدى إلى تسارع حضاري وعمراني . ويحتاج هذا التبدل السريع إلى ملاحقة الأحياء الذين عاشوا هذا التطور المتلاحق وتسجيل شهاداتهم حتى لا ينفلت مع التقدم السريع زمام تراث المنطقة فتنقطع عن جذورها .

نختتم بالقول بأننا حين نضع ثقتنا في الوثيقة الشفهية نسبر بها غور كل وثيقة أخرى، لا نفعل ذلك جزافاً ولا تحيزاً إنما لثقتنا في منهج المؤرخ الذي يجد أمامه دليلاً حياً يقوم شاهداً عياناً على عصره ومجتمعه . ونجد أن هذا المؤرخ التحليلي يقترب إلى حد كبير مما يقوم

به العالم النفساني أو القاضي لأنه يستطيع أن يزيد في معلوماته ويستوثق من صدقها بالمقابلات والأسئلة وإعادة الأسئلة بأساليب مختلفة . ونثق أيضاً في وجوب أن يتمتع هذا المؤرخ الذي تقوم مصادره على الوثيقة الشفهية بما كان يتمتع به راوي الحديث الشريف من أربعة : العقل والضبط والإسلام والعدالة ليكون صادقاً — كما يقول الكافيجي — في أمر الدنيا والدين . "ولتزداد الرغبة في تاريخه والاحتراز من المجازفة والافتئات فيحصل له الأمن من الوقوع في الضلالة والإضلال" . ونثق أيضاً، عوداً على بدء، من أن المؤرخ لن يأخذ علمه من سفيه ولا من شيخ خرف، ولا ممن يدعو الناس إلى هواه، ولا ممن يكذب أحاديث الناس . وأنه حين يبدأ في تسجيله للرواية الشفهية يهتم بتسجيل اسم الراوي وعنوانه وسنه ونسبه ووضعه الاجتماعي، كما يمكن له أن يثبت أية ملاحظات عن شخصية الراوي وسيكولوجيته، هذا بالإضافة إلى إثبات مكان المقابلة وتاريخها . ولا يبقى لنا بعد كل هذا الاحتراز إلا أن نقيس كل وثيقة أخرى بوثائقنا الشفهية التي يتأكد لنا بالنقد أنها صادقة، وأنها ستخدم هدفنا في كتابة تاريخ هو أقرب للصواب مما عداه .

الدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم

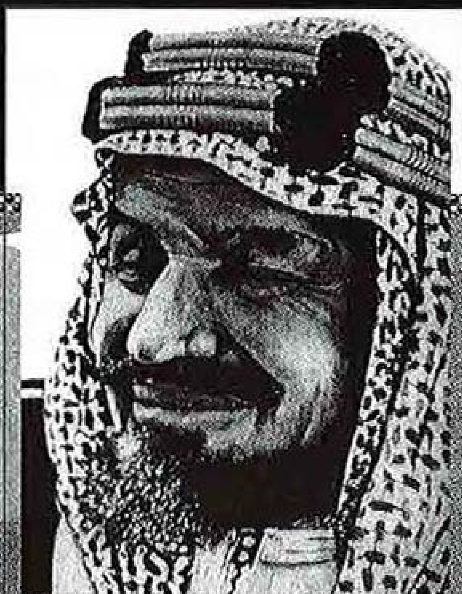
مركز زايد للتراث والتاريخ

نظرة في رسائل
الإمام عبد الرحمن بن فيصل

لاشك أن الرسائل التي يكتبها أصحاب الشأن وتختم بأختامهم تكون وثائق هامة يعتمد عليها الباحثون إلى حد كبير، لأنها تؤرخ أحداثا وتصف وقائع، وتمتاز بدقة التوقيت فهي تكتب بنفس الزمان والمكان أحيانا، ومن شاهد عيان، مما يجعل الاعتماد عليها لدى الباحث بأعلى مكان. وبين أيدينا عشرات الرسائل الاصلية غير المصورة والمختومة بختم الإمام عبد الرحمن بن فيصل والملك عبد العزيز ونلاحظ فيها:



...و الملك عبدالعزيز



بقلم : الدكتور علي أبا حسين

ثالثا : حوت رسائل الإمام عبد الرحمن بن فيصل أخبار انتصارات الملك عبد العزيز في جهات الخرج والقصيم وأنحاء أخرى من نجد .

وإن أرجح تاريخ لوفاة الإمام عبد الرحمن بن فيصل كان في ٢٤ ذي الحجة ١٣٤٦هـ الموافق في ١٤ يونيو ١٩٢٨م بناء على الرسالة التي أرسلها جلالته إلى شيخ البحرين يشكره فيها على رسالته المؤرخة في ٢٤ ذي الحجة والتي ذكر فيها تعزيته بوفاة الإمام عبد الرحمن فقال جلالته : وأن ما ذكرتم عن ما وقع في قلبكم من الحزن الشديد عندما بلغكم خبر وفاة والد الجميع سيدي الإمام[١٥] .. من هنا نخرج بنتيجة على أن الوثائق الأجنبية ليست من الدقة بمكان – ولا أقول كلها بل بعضها – وإنما في تراثنا ووثائقنا ما هو اكثر دقة وصحة منها خصوصا إذا كان كاتبها معروفا بالأمانة والصدق وكتبت في نفس الزمان والمكان. ولدى السؤال من كبار السن في البحرين علمت أن خبر وفاة الإمام عبد الرحمن وصل إلى البحرين من الرياض عن طريق التلغراف الذي كان مركزه الرئيسي البحرين فابلغ شيخ البحرين بالخبر فأرسل بدوره تعزيه إلى الملك عبد العزيز الذي يؤدي فريضة الحج في مكة المكرمة قبل أن يصله الخبر من الرياض .

أما (لوريمر) فقد أشار إلى ولادة الإمام عبد الرحمن بن فيصل في عام ١٨٥٦م[١٦] وأورد جون فيلبي أن الإمام توفي عن عمر يناهز الثانية والسبعين[١٧] فتصبح وفاته والحالة هذه ١٩٣٤م وهذا خطأ واضح .

خلاصة القول فان في رسائل الإمام عبد الرحمن والملك عبد العزيز وشيوخ الخليج وحكام العرب جميعا ما قد يلقي الضوء بعد تحقيقها فتصحح ما كتبه الأجانب .

ومن رسائل الملك عبد العزيز انه يخبر شيخ البحرين عن أحوال الشريف وانشغاله بحربه في اليمن ومع القبائل هناك التي أخذت تنضم لجلالته[١٨] .

وواصل الملك الأخبار عما قام به الشريف مع رعية الملك . ثم يتطرق إلى استعادته للاحساء ١٣٣١هـ وكيف أمن العسكر هناك وترك حلالهم وسلاحهم الذي بأيديهم. قال الملك : تركنا ذلك شيمة عربية واحتراما للدولة وجهزناهم إلى البحرين ونحن نبشركم بما منَّ الله علينا من استرجاع أملاكنا السابقة لما نعهد من محبتكم[١٩] . ثم توالت الانتصارات لجند الملك نحو أنحاء المدينة المنورة[٢٠] . وتطورت الأحوال فقد أخبر ابن جلوي شيخ البحرين بأن مكة المكرمة وجدة قد أخليتا من الترك وأن عسكر الطائف الآن محصورين . ثم توالت انتصارات الملك على عربان الشريف[٢١] . وفي ٢٣ محرم ١٣٤١هـ/ الموافق ١٦ سبتمبر ١٩٢٢م وصل الملك عبد العزيز إلى الاحساء فقدم الشيخ حمد ابن الحاكم الشيخ عيسى بن علي وأخوته للسلام عليه فرحب بهم وقدموا له الدعوة فرحب بها . ويتزامن هذا التاريخ مع ما في البحرين من أحداث أثارها (الميجر ديلي) وذلك في أول صفر يوم السبت من عام ١٣٤١هـ .

وفي ١٩٤٩م/٦٨-١٣٩٦هـ صدر مرسومان يحددان المياه الإقليمية للبلدين الشقيقين وذكر القرار الذي يتسم بروح الصداقة وحسن النية الأنشطة المختلفة في قاع البحر المجاور للبلدين — دون المساس بالمياه الإقليمية للدولتين(٣٥).

وكان سمو الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة أمير دولة البحرين قد زار المملكة العربية السعودية في صيف ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ واجتمع مع جلالة الملك عبد العزيز كما اجتمع الوفد البحريني المرافق لسمو الأمير بوفد المملكة فوضعوا الحدود وفي قول جلالة الملك للوفد السعودي (إن **أملاكنا مشتركة والحلال واحد وأن الذي يريده الشيخ سلمان** اعملوه)(٣٦). وهكذا كانت الصلة الأخوية بين الأشقاء تستند على المحبة والاخوة وحسن الجوار.

وفي عهد الشيخ حمد بن عيسى بن علي توطدت العلاقات فقد اجتمع مع وفد الملك عبد العزيز في مكة المكرمة في ١٦ فبراير ١٩٣٨م ١٤ ذي الحجة ١٣٥٦هـ حين أدائه فريضة الحج ورافقه الأمير سعود بن عبد العزيز. وكتب (بولارد) السفير البريطاني في تقريره الذي رفعه السير أنطوني إيدن وزير الخارجية البريطانية قوله : حدثني الملك ابن سعود معربا عن تقديره العميق للشيخ حمد وذكر لي ببالغ الارتياح أنه تلقى رغبة الشيخ حمد في أداء فريضة الحج والاجتماع به ببالغ الارتياح وذلك لأن الشيخ حمد من أجلّ الرجال خلقا. وعلق السير (بولارد) على ذلك بأن كلاً من الملك ابن سعود والشيخ حمد ينتميان إلى قبيلة عنزه، وكان يخاطبه بصاحب السمو. وسألني الملك عن عدد

الطلقات التي تطلق للشيخ تحية عند وصوله فأخبرته بأنه إحدى عشرة طلقة تحية له . فقال الملك بأنه يحييه بإحدى وعشرين طلقة، وأطلقت بالفعل إحدى وعشرين طلقة . وكان الاستقبال السعودي لشيخ البحرين رائعا فقد حلقت ست طائرات سعودية عدة مرات فوق السفينة (لندن ديري) حين أخذت تقترب من الميناء في جدة . ووصل الأمير فيصل وكان اللقاء وديا للغاية . وقد قرأ ضابط سعودي تفاصيل المراسم الرسمية للاستقبال وكان برنامجا حافلا طيلة الأيام التي قضاها في مكة المكرمة . ولقي ترحيبا وتكريـما من الملك عبد العزيز وأبنائه . واستطرد بولارد بقوله بأن الشيخ حمد كان صورة حيوية للحماس والجاذبية وذلك حين اجتمع في حفل أقيم له في جدة . وتكلم الشيخ حمد بكلمة في ذلك الحفل الذي ضم بعض الأجانب فأشاد بكريم الضيافة التي قوبل بها من الملك عبد العزيز وأشاد باستقرار الأمن في الجزيرة العربية وتطور العلاقات بين البحرين والمملكة . وقد نشرت صحيفة "أم القرى" في ٢٨ يناير ١٩٣٨م مقالا تحت عنوان (إن جلالة الملك عبد العزيز يمثل قدوة حسنة رائعة للصداقة الإسلامية والأخوة العربية . وذكر السفير البريطاني في تقريره أن ذلك يذكرنا بالترحيب الذي لقيه الملك عبد العزيز حين زيارته للبحرين كمظهر للوحدة الأخوية، وإننا واثقون بأن الأمة العربية التي وحدها جلالة الملك عبد العزيز لتخطو خطوة إلى الأمام مستمدة من التفاهم والإخلاص ما بين ملوكها وأمرائها وشعوبها وأفرادها، وأن هذه المظاهر الإسلامية الجليلة تشكل أساسا متينا لبناء الوحدة . هذا ما أورده (بولارد) السفير

البريطاني في تقريره الذي رفعه إلى أنطوني إيدن وزير خارجية بريطانيا في ١٩٣٨م[٣٧] .

وتلبية لدعوة من الشيخ حمد بن عيسى بن علي وجهها إلى الملك عبد العزيز لزيارة البحرين، فقد زار الملك عبد العزيز البحرين في العام التالي ٢ مايو ١٩٣٩م/ الموافق ١١ ربيع أول ١٣٥٨هـ، وكان جلالته يريد حل الخلاف القائم وقتئذ بين البحرين وقطر .

وورد في التقرير السنوي ١٩٣٩م عن زيارة الملك ابن سعود إلى البحرين قوله :

جاء الملك ابن سعود في أواخر ١٩٣٩م من نجد إلى الاحساء لزيارة آبار النفط في الدمام . وانتهز سمو الشيخ حمد هذه الفرصة ليدعو الملك ابن سعود ليزور البحرين . لم تدم الزيارة الأخيرة للملك ابن سعود إلى البحرين قبل ١٠ سنوات إلا بضع ساعات .

ووصل كل من الأمير سعود والأمير فيصل قبل الملك ابن سعود، فقد جاء الأمير سعود من الجزيرة العربية والأمير فيصل من القاهرة حيث أنه حضر مؤتمرا عربيا . وقد رافق الأمير فيصل كل من الأمير خالد وسعادة الشيخ حافظ وهبه الوزير السعودي في بريطانيا .

وانضم عدد كبير من الوزراء والأعيان والأشراف إلى الملك في زيارته وبلغ عددهم المئات . وسكنوا في الرفاع في بيوت شيوخ آل خليفة وفي منزل القصيبي لأن الجو في الرفاع كان أحسن من المنامة من حيث الحر . وقد أقيمت خدمات هاتفية ولاسلكية خارج منزل الملك .

ومن اللقاءات والاجتماعات المتواصلة بين العاهلين السعودي والبحريني فقد زار الشيخ حمد (القيصومة) وذلك في أواخر عام ١٩٤١ م الموافق ١١ ذي القعدة ١٣٦٠هـ واجتمع مع الملك عبد العزيز هناك وحضر شيخ الكويت ذلك الاجتماع[٣٨].

وفي تقرير من المقيم إلى وزير المستعمرات الهندية : بأن شيخ الكويت قد غادر (القيصومة) صباح الأول من ديسمبر ١٩٤١م ليشارك شيخ البحرين في روضة القيصومة في (الدبدبه) حيث يتوقع أن يصل إليها الملك ابن سعود، ولحد معرفتي – على حد قول المقيم البريطاني – ليس للقاء أي أهمية سياسية[٣٩].

د. علي أباحسين

الهوامش

١ – الرسالة مؤرخة في ١٠ محرم ١٣٢١هـ الموافق في ٩ أبريل ١٩٠٣م و٣٨ شوال ١٣٢٥ هـ/ ٥ ديسمبر ١٩٠٧م .

٢ – رسالة في ٢٧ رمضان ١٣٣٤هـ .

٣ – ورسالة مؤرخة في ذي القعدة ١٣٣٤هـ .

٤ – ورسالة مؤرخة في ٢ شوال ١٣٣٥هـ و ٢٢ شعبان ١٣٣٧هـ .

٥ – ورسالة مؤرخة في ٨ جمادى الأولى ١٣٣٨هـ .

٦ – الرسالة مؤرخة في ١٢ رجب ١٣٤٠هـ وأخرى في ٢ رجب ١٣٤٣هـ .

٧ – الرسالة مؤرخة في ٢٦ رجب ١٣٤٠هـ الموافق في ٢٦ مارس ١٩٢٢م .

٨ – مؤرخة في ٢٤ صفر ١٣٤٧هـ .

٩ – الرسالة في رجب ١٣٤٧هـ .

١٠ – في ١٨ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ .

١١ – الرسالة في ٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٨هـ .

١٢ – ميك ١٨٢ ص٢٣٣ رسالة من المعتمد السياسي في البحرين إلى المقيم في بوشهر بتاريخ ١٢ يونيو ١٩٢٨م .

١٣ – الرسالة من الملك عبد العزيز إلى الشيخ عيسى بن علي آل خليفة شيخ البحرين برقم ٥١٦ ومؤرخة في ١٥ ذي الحجة ١٣٤٦هـ الموافق في ٦ يونيو ١٩٢٨م .

١٤ – الرسالة برقم ١٧١٣ وتاريخ ٥ شوال ١٣٤٦هـ .

١٥ – رسالة جلالته برقم ١٠٦٣ وتاريخ ٢٨ ربيع اول ١٣٤٧هـ .

١٦ – لوريمر، دليل الخليج . شجرة آل سعود جـ٣/٣/١٤.

١٧ – جون فيلبي . العربية السعودية (الطبعة الإنجليزية) ص٢٣٩. ١٩٥٥م .

١٨ – الرسالة بتاريخ ١٢ رجب ١٣٣٠هـ .

١٩ - الرسالة بتاريخ ٢ جمادى الثانية ١٣٣١هـ .

٢٠ - الرسالة بتاريخ ٢٧ رمضان ١٣٣٤هـ .

٢١ - في ٢٢ شعبان ١٣٣٧هـ .

٢٢ - رسالة مؤرخة في ٢٥ محرم ١٣٤١هـ وأخرى في ٢٥ صفر ١٣٤١هـ .

٢٣ - في ٢٨ صفر ١٣٤١هـ .

٢٤ - رسالة بتاريخ ٢٨ ربيع أول ١٣٤٣هـ .

٢٥ - رسالة من الملك عبد العزيز في ٢ رجب ١٣٤٣هـ . وانظر رسالة مؤرخة في ٢٤ رجب ١٣٤٣هـ بواسطة عبد العزيز القصيبي .

٢٦ - في ٨ رمضان ١٣٤٣هـ .

٢٧ - الوثيقة مؤرخة في ١٨ صفر ١٣٤٤هـ .

٢٨ - الرسالة مؤرخة في ١ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ .

٢٩ - في ٦ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ .

٣٠ - في ٢٦ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ .

٣١ - في ٣ شعبان ١٣٤٤هـ .

٣٢ - من القيادة البحرية في لندن إلى دائرة الهند بتاريخ ١٣٣٦/١١/٦هـ - الموافق في شعبان ١٣٥٥هـ/ برقم ١٦- ب ر/١/٧٩٥٤ ص٤١١ .

٣٣ - ١٦ - /ب ر/١/ص ٤١٦ في ١٧/ ١١/١٩٣٦.

٣٤ - ١٦/ب ر/١/٥٩٧٩/ ص٤٢٩ في ١٩٣٨/٨/١٧/جمادى الآخرة ١٣٥٧هـ .

٣٥ - فالانتاين، إمارة البحرين المستقلة، ص١و٢٧و٣٠و٤٠و٤٥ .

٣٦ - وثيقة رقم ١٥٦٥ مؤرخة في أبريل ١٩٥٠م الموافق في ٢٢ جمادى الثانية ١٣٦٩هـ .

٣٧ - التقرير رقم ١٢/ب ر/١/اي ٩١/٣٠/٩٧٧ ص٩٨و٩٩ بتاريخ ١٩٣٨/٢/٢١ من بولارد السفير البريطاني في جدة إلى السير أنطوني إيدن وزير خارجية بريطانيا .

٣٨ - ١٦/ب ر/١/٧٨٠١ ص١٢٦ في ١٩٤١/١٢/١ .

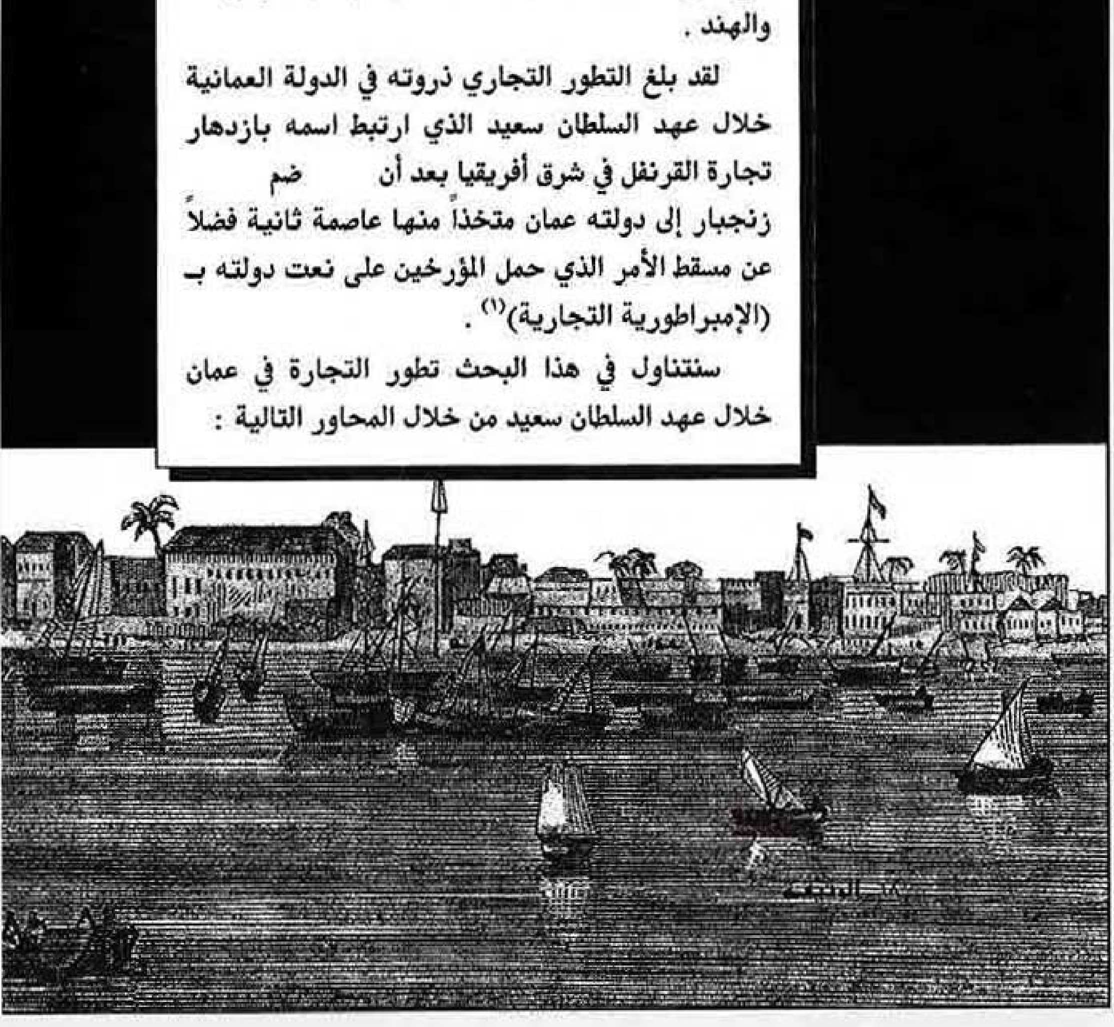
٣٩ - من المقيم إلى وزير المستعمرات الهندية، ١٦ ب ر-١(٧٨٠١) ص ١٢٦ بتاريخ ١-١٢-١٩٤١م الموافق ١١ ذي القعدة ١٣٦٠هـ .

تطوّر التجارة في

اهتم العمانيون منذ القدم بالتجارة، إذ كان التجار العمانيون معروفين في موانئ العالم المتباعدة لكون عمان تقع على الطرق التجارية بين الشرق والغرب وأفريقيا والهند .

لقد بلغ التطور التجاري ذروته في الدولة العمانية خلال عهد السلطان سعيد الذي ارتبط اسمه بازدهار تجارة القرنفل في شرق أفريقيا بعد أن ضم زنجبار إلى دولته عمان متخذاً منها عاصمة ثانية فضلاً عن مسقط الأمر الذي حمل المؤرخين على نعت دولته بـ (الإمبراطورية التجارية)[1] .

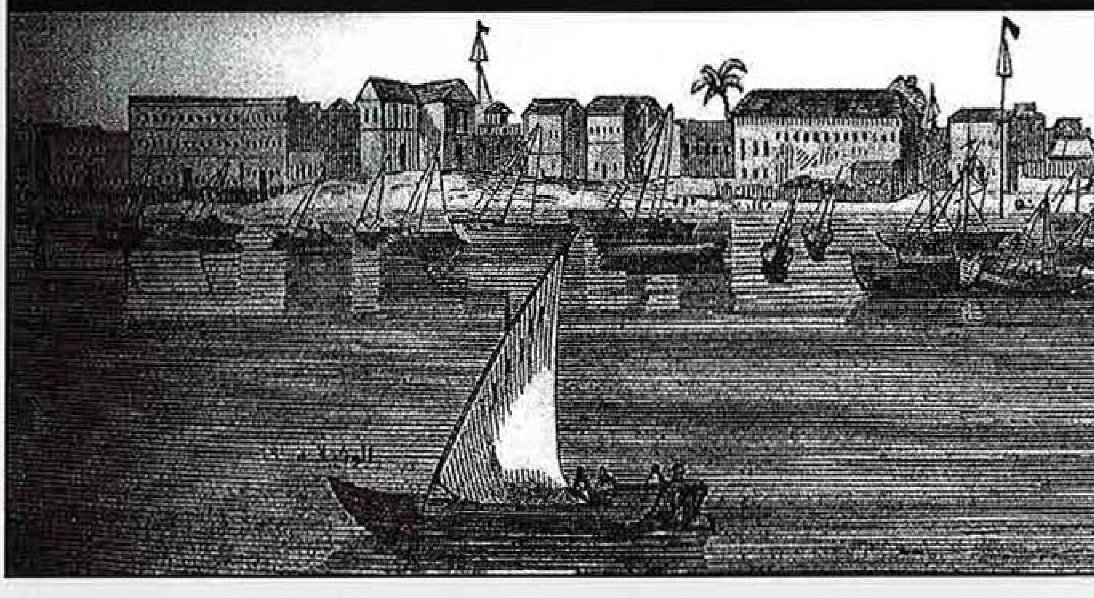
سنتناول في هذا البحث تطور التجارة في عمان خلال عهد السلطان سعيد من خلال المحاور التالية :





عُمان
خلال عهد سعيد بن سلطان
١٨٠٤-١٨٥٦م

بقلم : دكتور فاضل محمد الحسيني



١ – البضائع المصدرة والبضائع المستوردة .
٢ – العلاقات التجارية العمانية .
٣ – المراكز التجارية العمانية الرئيسية .
معتمدين في ذلك على أبرز المصادر والمراجع المحلية والعربية والأجنبية .

١ – البضائع المصدرة والبضائع المستوردة .

تطورت التجارة كثيراً فترة حكم السلطان سعيد لعمان حيث اعتبرت هذه الفترة من أزهى الفترات التاريخية التي مرت بها عمان إذ لعبت التجارة خلالها دوراً كبيراً في غنى عمان وثرائها بما يتناسب وامتدادها الآسيوي الأفريقي يومئذ[٢] .

كانت التجارة في عمان أيام السلطان سعيد تتمثل بوفرة مختلف السلع والبضائع القيمة الفاخرة ومن الأصناف الجيدة سواء المصدرة منها أو المستوردة أو تلك التي تدخل ضمن تجارة التوزيع وهي البضائع التي تستورد ثم يعاد تصديرها وقد شكلت جميعاً البضائع المصدرة والمستوردة وبضائع تجارة التوزيع الدعامة الأساسية للاقتصاد العماني حينئذ[٣] .

سنتطرق في هذا المحور بشيء من التفصيل للبضائع المصدرة أولاً والتي كانت تشمل : اللؤلؤ والفضة والذهب والكبريت والملح والنحاس والزرنيخ والزعفران والبخور والفواكه المجففة والأعشاب الطبية، فضلاً عن التمور والأنسجة .

ولا يتسع مجال هذا البحث إلى تناول جميع هذه البضائع كلاً على حدة، لذا سنحاول بعض التفصيل للبضائع المهمة التي كانت تصدرها عمان خلال

حكم السلطان سعيد والتي كانت تشـكل الثقل النوعي للتجارة العمانية يومذاك .

ومما تجدر الإشارة إليه أن هناك من الصادرات التي لم تقتصر على عهد السلطان سعيد بل سبقت عهده منذ عدة قرون وعمان مستمرة في تصديرها إلى الخارج، إلا أن السلطان سعيد عمل على تطويرها وتحسينها ووضع لها صيغاً جديدة ومتطورة لتصديرها، ولعل من أبرز هذه البضائع هي (البخور) تلك التجارة القديمة العريقة لعمان، إذ كان العالم القديم يستهلك منه الكثير، وقد استمرت بضاعة (البخـور) تشكل بضاعـة هامـة للتصدير من عمان لعـدة قرون[٤] .

الواقع، إن مادة البخور كانت وراء شهرة مدينة (ظفار) العمانية حيث كان مقر إنتاجها . والبخور عبارة عن المادة المستخرجة من اللبان الموجودة بوفرة في مدينة ظفار والتي تعد من أفضل مناطق العالم لإنتاج البخور، ويعتقد أنها ذات المنطقة التي أشار إليها (سفر التكوين) باسم "سفار"[٥] .

ومن الصادرات العمانية الأخرى هو (التبغ) الذي كان يزرع في ساحل الباطنة منذ القدم فيستهلك قسم منه ويصدر القسم الآخر إلى الخارج، كذلك تعد الفواكه والخضراوات من صادرات عمان القديمة والتي استمرت حتى مجيء السلطان سعيد الذي أقدم على تطويرها وازدهار زراعتها والعمل على تجفيف القسم الكبير منها ثم تصديره للدول المجاورة، فضلاً عن تقديم البعض منها إلى السفن الزائرة لموانئ عمان المختلفة .

ومن الصادرات أيضاً الأسماك بمختلف أنواعها المجففة منها أو الطازجة كالسردين مثلاً .

كما تعتبر التمور من صادرات عمان القديمة والتي استمرت حتى عهد السلطان سعيد والتي أحدث عليها خلال عهده تطورات كثيرة من حيث

زراعتها والإكثار من الأصناف الجيدة منها لتصديرها حيث أن زراعة النخيل منتشرة في مناطق عدة من عمان، فقد قدر عدد النخيل فقط في وادي سمائل بأكثر من نصف مليون نخلة خلال القرن التاسع عشر، وهناك العديد من الأنواع الجيدة من التمور العمانية منها تسمى بـ (ميسلي) و(فرض) و(خلاص)، وقد تصدرت هذه الأصناف الجيدة صادرات عمان إلى أمريكا بعد أن فتح السلطان سعيد مع الولايات المتحدة الأمريكية علاقات تجارية وطيدة فضلاً عن العلاقات الدبلوماسية[٦] .

ومن صادرات عمان الأخرى (الليمون) المعروف بمنحه وقاية ضد مرض الإسقربوط الذي عادة ما يصيب البحارة، ويعد الليمون الصغير الأخضر من المنتجات العمانية الهامة إذ تحظى بالدرجة الثانية بعد التمور باهتمام المزارعين العمانيين الذين يقدمون على تجفيفه ثم تصديره إلى دول الخليج العربي وإلى جنوب العراق بالتحديد حيث يسمونه بـ (لومي البصرة)، حيث يصنع العراقيون منه شراباً يطلق عليه اسم (الشاي الحامض)[٧] .

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن التجارة قي عمان أيام السلطان سعيد أن نذكر بأن الازدهار التجاري لعمان خلال عهده لم يحدث اعتباطاً وإنما جاء نتيجة لسياسة تجارية ناجحة انتهجها السلطان سعيد والتي كانت تتمثل بالتنسيق الجيد للفعاليات التجارية القائمة بين سواحل الهند والخليج العربي والبحر الأحمر وشرق أفريقيا، فضلاً عن اتباعه لنظام ضرائبي جيد ساعد كثيرا على نجاح التجارة وازدهارها في دولته عمان، حيث كان النظام الجمركي الذي وضعه السلطان سعيد يساعد كثيراً على انتعاش التجارة سواء فيما يتعلق بالصادرات أو الواردات، فقد كانت الضريبة المفروضة على الواردات التي تصل عمان من خلال جميع موانئها لا تزيد على (٥٪)، بينما أعفيت تماماً الصادرات العمانية إلى العالم من الضرائب، ولم يفت السلطان سعيد الالتفات إلى النظام النقدي حيث كان النظام النقدي في عهد الذين سبقوه في الحكم

مرتبطاً بالعملة الأجنبية (وهي الريال الألماني والنمساوي والأسباني) فعمل السلطان سعيد على فك هذا الارتباط مؤسساً نظاماً نقدياً جديداً وبسيطاً حلّ محل النظام النقدي السابق[٨] .

أما الصادرات التي دخلت تاريخ التجارة العمانية لأول مرة في عهد السلطان سعيد والتي ظهرت بفضل جهده الشخصي فهي التجارة بمحصول (القرنفل)، حيث اهتم السلطان سعيد خلال عهده بتطوير هذه التجارة بعد أن بذل جهوداً استثنائية لإدخال زراعة القرنفل ونجاحها في زنجبار ثم تصديره للعالم حيث شكلت عوائد مزارع القرنفل قبل نهاية عهده ثلث الدخل للدولة العمانية، كما بلغت في مراحل تاليـة من عهده أن تنتج زنجبـار وحدها نسـبة (٩٥٪) من إنتاج العالم من محصول القرنفل[٩] .

لقد حول السلطان سعيد شرق أفريقيا بعد ضمها إلى دولته عمان إلى مجتمع زراعي بالدرجة الأولى، وأدخل أنواعاً عديدة من الحاصلات فيها وبخاصة زراعة القرنفل حتى غدتا جزيرتا زنجبار وبمبا تمدان العالم بالنصيب الأوفر من هذا المحصول[١٠] .

ويرى العديد من المؤرخين العرب والأجانب بأن من أفضل إنجازات السلطان سعيد في شرق أفريقيا وأكثرها نفعاً للاقتصاد العماني هو تشجيعه الكبير لزراعة القرنفل ونجاحه الرائع في ذلك بعد إصراره على النجاح فيه من خلال بذل المزيد من المحاولات والتشجيع الكبير لزارعيه والعناية الفائقة من لدنه من أجل إنجاح زراعة وتجارة هذا المحصول، ولذلك يعد السلطان سعيد واضع الحجر الأساس لزراعة محصول القرنفل في شرق أفريقيا كما عدّ بعض المؤرخين أن شجرة القرنفل تعتبر النصب التذكاري الخالد للسلطان سعيد، لأنها تخلد ذكراه وشاهدة على جهده الخير في هذا الميدان[١١] .

أما بقية الصادرات العمانية خلال عهد السلطان سعيد فهي كثيرة ولكنها لا ترقى في الأهمية أو المردود الاقتصادي لما تقدم ذكره ومنها النحاس والخشب والأحجار الكريمة والتحف الخشبية والخرز كما كانت عمان تصدر كذلك التفاح ولب جوز الهند المجفف وصمغ الكوبال إلى الولايات المتحدة الأمريكية بالذات[١٢] .

وعند الانتقال إلى البضائع المستوردة أيام السلطان سعيد نجدها تتضمن الأنسجة القطنية والزنجبيل والهيل والقطن والصوف وخشب الصندل والفلفل وجوز الطيب والقرفة والمسك والكافور والحديد والأرز والرصاص والزيت[١٣] .

أما السلع المستوردة من الولايات المتحدة الأمريكية زمن السلطان سعيد فكانت تتضمن الشراشف والملاءات القطنية والأواني المنزلية والبنادق والبارود ومخزونات السفن والساعات والأحذية والتوابل[١٤] .

لم يكن اهتمام السلطان سعيد مقتصراً على البضائع المصدرة فقط وإنما كانت بصمات اهتمامه واضحة أيضاً في اقتناء البضائع المستوردة ومناطق الاستيراد منها، فقد كان السلطان سعيد تاجراً قبل أن يكون حاكماً وكثيراً ما كان يردد هذا القول أمام زائريه : "إنني لست إلا تاجراً" .

ولذلك تمكن السلطان سعيد من تحويل دولته عمان ذات الطبيعة المجدبة والأرض الفقيرة إلى بلاد غنية مرفهة من خلال تنشيط التجارة فيها سواء في حقل الصادرات أو الواردات لعمان .

وفي نهاية المحور لابد من التطرق إلى تجارة التوزيع بشيء من التفصيل والتي أشرنا إليها في مطلع المحور وهي ما نطلق عليها (التجارة الوسيطة) لأن بضائع هذه التجارة تدخل ضمن البضائع المستوردة كما تدخل بذات الوقت ضمن البضائع المصدرة لكونها تستورد من خارج عمان فيؤخذ منها ما يسد حاجة البلاد ثم يصدر الفائض إلى الخارج وهي ليست بالتجارة البسيطة ذات

المردود الضئيل، وإنما على العكس، كانت تدر على عمان أرباحاً طائلة، فالثروة التي كان يحصل عليها العمانيون في عهد السلطان سعيد من جراء استيراد (البن) فقط من مينائي (الحديدة) و (المخا) في اليمن وحده كاف لثراء عمان وغناها لأنه كان يساوي نصف الكمية المنتجة في اليمن سنوياً وهو يكفي لتلبية الطلب عليه من قبل فارس والبلدان العربية والدولة العثمانية إضافة للدول الأوروبية كألمانيا وروسيا وبولندا[١٥] .

كذلك الأمر بالنسبة لتجارة (اللؤلؤ) فقد تصاعدت حركة تجارة التوزيع للـ (اللؤلؤ) إبان عهد السلطان سعيد بشكل لم يسبق له مثيل . وقد رافق ذلك التطور الكبير لإنتاج اللؤلؤ من مصائد اللؤلؤ التابعة للبحرين وقطر والكويت وأبو ظبي . ومن مميزات عهد السلطان سعيد التجارية أن الخليج العربي خلال عهده كان يعد السوق الدولية الرئيسية لتجارة اللؤلؤ، وكان التجار العمانيون إضافة للتجار الهنود والإنجليز والفرس يتنافسون على شراء اللؤلؤ من الخليج العربي باعتباره النوع الأجود والأفضل والأكثر ندرة في العالم، إذ يتنافس على شرائه العديد من الدول كفارس ومصر والهند وأوروبا وأمريكا، وقد لعبت عمان خلال عهد السلطان سعيد دوراً كبيراً في شراء اللؤلؤ من إمارات الخليج العربي ومن ثم تصديره إلى أمريكا وأوروبا وفارس حتى أن السلطان سعيد شخصياً كان يحتفظ لنفسه بثروة هائلة من أندر أنواع اللؤلؤ في العالم[١٦] .

كذلك دخلت التمور العراقية والأنسجة الهندية ضمن نطاق تجارة التوزيع - التجارة الوسيطة - حيث كانت عمان تستورد التمور من العراق والأنسجة من الهند لتقوم بعد ذلك بتصديرها لمينائي الحديدة والمخا اليمنيين .

ومن الجدير بالذكر أن تجارة التوزيع - التجارة الوسيطة - لم تكن وليدة عهد السلطان سعيد بل إنها قديمة قدم التاريخ العماني وقد استمرت مزاولتها من قبل العمانيين حتى مجيء عهد السلطان سعيد الذي بذل جهودا كبيرة لتطويرها وازدهارها فقد أخذت عمان خلال عهده تستورد البضائع العديدة

والمتنوعة من الشرق الأقصى وفارس والبلاد العربية لتمر بمركزي عمان (مسقط وصحار) ثم تصدر خارج عمان حسب مناطق الطلب عليها، فهناك الكثير من السلع أمثال التمور والموز والتين والعنب وفواكه المناطق المدارية وأنواع الحمضيات كانت تدخل أيضاً ضمن هذه التجارة[١٧] .

٢ - العلاقات التجارية لعمان خلال عهد السلطان سعيد

لقب عصر السلطان سعيد بالعصر الذهبي نسبة للإنجازات الكبيرة التي حققها لعمان في عهده وعلى كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . والذي يهمنا في هذا البحث هو الصعيد الاقتصادي وبالتحديد التجارة التي ازدهرت كثيراً خلال عهده نتيجة لعوامل عدة من أهمها الاهتمام الفائق الذي كان يوليه السلطان سعيد للتجارة، والإجراءات العديدة التي اتخذت في عهده من أجل تذليل الصعاب والعقبات أمام التطور التجاري ومن بينها إقامة أمتن وأوثق العلاقات التجارية مع أغلب دول العالم .

والواقع أن التسهيلات الاقتصادية التي اتخذتها عمان خلال عهد سعيد لم تقتصر على تجارة العمانيين فحسب بل شملت كذلك التجار الأجانب[١٨]، الأمر الذي دعا الكثير من دول العالم إلى التعامل التجاري مع عمان، حيث أن أمريكا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والهند وفارس وإمارات الخليج العربي وأفريقيا كانت ترتبط مع عمان بأفضل العلاقات التجارية التي تدر الأرباح الطائلة لكل من الطرفين[١٩] .

سنتناول في هذا المحور أهم العلاقات التجارية لعمان مع دول العالم خلال عهد السلطان سعيد وهي كثيرة ومتشعبة لا يتسع نطاق البحث لها، إلا أننا سنولي الاهتمام للعلاقات التجارية المتميزة التي ارتبطت بها عمان والتي كانت

تدر عليها الأرباح الطائلة أو تلك العلاقات التي تشكلت لأول مرة خلال عهد السلطان سعيد، كما حدث ذلك مع الولايات المتحدة الأمريكية .

عقد السلطان سعيد علاقات تجارية متينة مع العديد من القوى الدولية والمحلية الرئيسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، الأمر الذي أدى إلى تحول عمان ذاتها إلى إحدى القوى الدولية الرئيسية في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي[٢٠] .

لقد دشن السلطان سعيد بداية عهده بالعلاقات التجارية مع فرنسا عام ١٨٠٧م، إذ عقد اتفاقية تجارية معها، وقعها من الجانب الفرنسي الجنرال (ديكان) حاكم جزيرة فرنسا (جزر القمر حالياً)، ومن الجانب العماني وقعها السلطان سعيد شخصياً وقد تعهدت فرنسا بموجب هذه الاتفاقية التجارية بعدم التعرض للسفن العمانية التجارية، حيث كانت فرنسا تخوض صراعاً مع بريطانيا يومئذٍ وقد وافق السلطان سعيد وفق هذه المعاهدة أن يكون لفرنسا وكيل تجاري في العاصمة مسقط[٢١] .

كما وقع السلطان سعيد اتفاقية تجارية أخرى مع فرنسا وذلك في عام ١٨١٧م، وقد وقعها من الجانب الفرنسي (دي يونيون) وقد منحت هذه الاتفاقية الأفضلية التجارية لكلا البلدين .

الواقع أن السلطان سعيد قد أقام علاقات تجارية متميزة مع فرنسا طيلة حكمه لعمان وقد وصلت العلاقات التجارية بينهما إلى ذروتها في عام ١٨٤٤م عندما وقعت بينهما معاهدة للصداقة والتجارة وقعها من الجانب الفرنسي (مسيو رومان دنيوسي) تضمنت هذه المعاهدة بنوداً عدة أغلبها أعطت الامتيازات التجارية لكلا البلدين، فضلاً عن موافقة السلطان سعيد على بناء مخازن تجارية فرنسية في منطقة زنجبار[٢٢] .

أما العلاقات التجارية العمانية البريطانية خلال عهد السلطان سعيد فقد شهدت هي الأخرى تميزاً ملحوظاً في العلاقات ومتانة في الروابط التجارية، خاصة وأن بريطانيا قد طلبت من السلطان سعيد تحريم تجارة الرقيق ومحاولة إقناع شيوخ وأمراء دول الخليج العربي بهذا الأمر، وقد استجاب السلطان سعيد لطلب بريطانيا على الرغم من الخسارة الفادحة التي تعرض لها التجار العمانيون من جراء ذلك، منطلقاً في ذلك بدوافع إنسانية وليست مادية لكونه الوحيد الذي ساهم بفاعلية في محاربة تجارة الرقيق، بيد أن دولاً عديدة أوروبية مثل أسبانيا والبرتغال لم تنصع لمثل هذا الإجراء على الرغم من المغريات المادية التي عرضت عليها[٢٣].

كما وقع السلطان سعيد اتفاقية تجارية مع بريطانيا في الحادي والثلاثين من شهر مارس (آذار) عام ١٨٣٩م وقعها عن الجانب البريطاني (روبرت كوكان) الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في مسقط، وقد تضمنت بنود هذه الاتفاقية التبادل التجاري والتسهيلات التجارية من البلدين فضلاً عن الإشارة إلى التصدي ومحاربة تجارة الرقيق في عموم المنطقة والمساهمة معاً في إنجاز هذا الأمر.

إن السلطان سعيد بعقده الاتفاقيات التجارية مع الدول الكبرى ولاسيما بريطانيا قد ساهم بشكل كبير في الازدهار التجاري ليس في عمان فحسب، وإنما في منطقة الخليج العربي والمحيط الهندي كذلك، لذلك أقدمت الجمعية الملكية الآسيوية في لندن على اختيار السلطان سعيد كعضو شرف فيها بسبب دوره الكبير في تطوير التجارة وإشاعة السلم والاستقرار على سواحل الخليج العربي والمحيط الهندي[٢٤]، غير أن العلاقات التجارية بين عمان والولايات المتحدة الأمريكية قد نشأت لأول مرة خلال عهد السلطان سعيد بالذات، حيث تم التوقيع على اتفاقية تجارية بينهما في الحادي والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) عام ١٨٣٣م[٢٥]، وقعها عن الجانب العماني السلطان سعيد

نفسه في زنجبار بينما وقعها عن الجانب الأمريكي المبعوث الأمريكي لعمان (إدموند روبرتس)، وقد تضمنت الاتفاقية التسهيلات التجارية من البلدين وتعهد أمريكا بالاتجار مع عمان ومعاملة السفن العمانية والتجار العمانيين معاملة الأفضلية في الموانئ الأمريكية كما منحت الاتفاقية الحرية للأمريكان في البيع والشراء في عمان، فضلاً عن دفع الأمريكان رسماً جمركياً قدره ٥٪ على جميع بضائعهم الواردة من عمان[٢٦] .

مما تجدر الإشارة إليه أن عمان تعد أول دولة في المنطقة توقع اتفاقية تجارية مع أمريكا وثاني دولة عربية بعد المغرب وقد فتحت بنود هذه الاتفاقية آفاقاً تجارية رحبة بين عمان وأمريكا أسفرت عن توطيد العلاقات بينهما وقد ذكرت لنا المصادر التاريخية بأن السفن التجارية الأمريكية التي وصلت إلى زنجبار بعد عقد الاتفاقية مباشرة قد بلغت تسع سفن فضلا عن السفن الشراعية التي كانت مختصة بتجارة الحيتان يومئذٍ، التي تكثر في منطقتي زنجبار وبمبا، حيث كانت هذه التجارة تدر أرباحاً طائلة .

كان السلطان سعيد لا يدخر جهداً من أجل التطوير ودعم العلاقات التجارية لعمان مع العالم فهو لم يكتف بعقد الاتفاقيات فحسب وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك حيث كان يستخدم ربابنة السفن التجارية من أجل الاتصال بالتجار في دولهم ونشر الدعاية والترغيب بالتجارة مع عمان وهذا ما فعله السلطان سعيد مع ربابنة إحدى السفن (أولد سالم) حيث وجه الدعوة من خلالهم إلى أغلب التجار الأمريكيين من أجل الاتجار مع عمان[٢٧] .

الواقع، أن السلطان سعيد لم يترك علاقاته التجارية مع أمريكا يصيبها الوهن أو ينتابها الفتور بل كان دائماً يتواصل مع الحكومة الأمريكية من أجل تطوير العلاقات التجارية بينهما، فمرة بعث برسالة ودية للرئيس الأمريكي من أجل نمو وتطوير العلاقات بينهما، وتارة بعث ممثله الشخصي (أحمد بن نعمان الكعبي) على متن السفينة (سلطانة) إلى نيويورك عام ١٨٤٠م، حيث

كانت أول سفينة عربية تلقي مراسيها في ميناء نيويورك، وقد عدت هذه الاتفاقية من لدن السلطان سعيد مناسبة جيدة للإعلان عن تمتين العلاقات التجارية بين البلدين[٢٨].

ومن الجدير بالذكر أن المعاهدات التجارية التي عقدت بين الدول العربية والدول الغربية فيما بعد قد اتخذت من الاتفاقية العمانية الأمريكية نموذجاً يحتذى به لكونها أول اتفاقية شاملة للتجارة والصداقة عقدت بين حاكم عربي من الخليج وقوة دولية كبرى صاعدة وبذات الوقت كانت الاتفاقية تعد مغامرة أمريكية خارج حدودها مهد لها أحد التجار الأمريكيين يدعى (إدموند روبرتس) الذي قدم لعمان أول الأمر كتاجر بصفة شخصية ثم عاد لها ثانية على ظهر السفينة الأمريكية (بيكوك) بصفة رسمية حاملاً معه رسالة من الرئيس الأمريكي(أندرو جاكسون) إلى السلطان سعيد وقد شجع هذا الاهتمام من دولة كبرى السلطان سعيد كثيراً على تطوير تجارته عبر البحار وتوسيع شبكة علاقاته التجارية مع دول العالم[٢٩].

ولابد هنا من الإشارة إلى أن الصلات التجارية بين عمان وأمريكا قبل توقيع الاتفاقية التجارية لعام ١٨٣٣م كانت موجودة بين البلدين، إلا أنها كانت صلات بسيطة يقوم بها تجار أفراد حيث تفيد لنا المصادر التاريخية بأن أول سفينة أمريكية رست في زنجبار هي السفينة (لافريل) عام ١٨٢٥[٣٠]، أما كعلاقات تجارية بالمستوى التي ظهرت فيه عقب توقيع اتفاقية عام ١٨٣٣م فلم تكن موجودة البتة، وإنما ظهرت وتطورت بعد توقيع الاتفاقية وخاصة عندما أقدمت أمريكا على تعيين قنصل لها في زنجبار (ريتشارد) عام ١٨٣٧م و(هنري) كقنصل لها في مسقط عام ١٨٣٨م[٣١]، عندئذ أخذت البضائع الأمريكية تصل إلى عمان على متن السفن الأمريكية لتعود محملة بمختلف البضائع العمانية.

وفي نهاية هذا المحور لابد لنا من التنويه بأن السلطان سعيد خلال حكمه لعمان كان يدرك تماماً أهمية التجارة لعمان وبذات الوقت يعرف بخبرته كتاجر أهمية الخطوات العمانية التي تسهم في ازدهار هذه التجارة وتطورها، فالعلاقات التجارية مع أمريكا مثلاً لم تكن اعتباطاً أو مجرد نزوة طارئة، وإنما اتخذها السلطان سعيد بعد دراسة وتمحيص تامين لكونها العلاقات الأولى التي تمت في عهده لعمان وللمنطقة برمتها، وقد عادت على عمان والمنطقة بالخير الوفير . والسلطان سعيد لم يكتف بعلاقات التجارة مع أمريكا والدول الغربية والتي كان يعد تجارها من أكثر التجار جرأة، بل وثق كذلك علاقاته التجارية مع الدول الواقعة على المحيط الهندي إضافة للدول الغربية .

وكان هذا الأمر يعد من المقومات الأساسية لسياسة السلطان سعيد الناجحة والتي جعلت عهده من أكثر العهود التي مرت بها عمان تألقاً وازدهاراً[٣٢] .

كما لا يفوتنا أن نذكر ارتباط السلطان سعيد بعلاقات تجارية مع البرتغال إذ وقع اتفاقية تجارية معها في العشرين من شهر أكتوبر (تشرين الثاني) عام ١٨٤٣م، وقد تضمنت بنود هذه الاتفاقية إجراء التسهيلات التجارية بين البلدين واستقبال السفن العمانية في الموانئ البرتغالية وتنظيم الأوراق الخاصة بتلك السفن فضلاً عن تحسين العلاقات التجارية بين عمان والبرتغال[٣٣] .

وهناك العديد من العلاقات التجارية التي ارتبطت بها عمان أيام السلطان سعيد ولكنها لا ترقى إلى مستوى العلاقات التجارية الآنفة الذكر من حيث الأهمية أو المردود الاقتصادي، لأن المصادر التاريخية تذكر لنا بأن عمان خلال عهد السلطان سعيد قد عقدت أكثر من عشرين اتفاقية تجارية مع دول العالم وقد وقع على أغلبها السلطان سعيد بنفسه .

٣ - المراكز التجارية العمانية الرئيسية :

انتشرت العديد من المراكز التجارية على امتداد السواحل العمانية وقد ازدادت أعدادها في عهد السلطان سعيد بسبب إلحاق شرق أفريقيا بدولته عمان وبذلك أصبح لدى عمان مراكز تجارية أفريقية فضلاً عن المراكز في الشطر الآسيوي .

سنتطرق في هذا المحور إلى أبرز المراكز التجارية العمانية التي كانت تعمل على مدار الساعة وتزدحم فيها السلع التجارية طيلة أيام السنة سواء السلع المصدرة أو المستوردة أو التي تدخل ضمن تجارة التوزيع ، وهذه المراكز هي :

أولاً : مركز مسقط التجاري :

كانت مسقط مركزاً رئيسياً لتجمع البضائع وتوزيعها في غرب المحيط الهندي، ومن أهم موانئ هذا المحيط إن لم يكن أهمها على الإطلاق، بل صارت من المراكز أو الموانئ الدولية المهمة حيث كانت السفن الحربية والتجارية الداخلة أو المغادرة للخليج العربي تمر بمسقط[٣٤] .

لقد اهتم السلطان سعيد خلال فترة حكمه لعمان بمركز مسقط التجاري وذلك لأهميته القصوى في رفد التجارة العمانية وازدهارها ، فأقدم على إجراء التسهيلات التجارية في هذا المركز فضلاً عن تشييد أحواض كبيرة فيه لبناء مختلف أنواع السفن[٣٥] .

وقد ذكرت لنا الوثائق الإنجليزية أهمية مركز مسقط التجاري إذ أكدت بأن التجارة كانت مزدهرة جداً فيه أيام السلطان سعيد ، وأن الاتصال بين هذا المركز التجاري ومراكز الخليج العربي والبحر الأحمر كانت تتم بصورة مستمرة

وذلك بواسطة السفن العمانية، أما الاتصال بين مراكز الهند ومركز مسقط التجاري فكان يتم عبر السفن العمانية والسفن التي يمتلكها التجار الآسيويون والأوروبيون، وكانت هذه السفن تجري ما بين مركز مسقط وموانئ بومباي وسورات وكلكتا وهي تحمل على متنها بضائع مختلفة مثل اللؤلؤ والكبريت والنحاس والعفص والتمور والفواكه وغيرها من البضائع، وفي العودة إلى مركز مسقط التجاري كانت تجلب بضائع كثيرة مثل الأنسجة القطنية والصوف والفلفل والهيل والكافور والحديد والصلب وغيرها .

أما السفن الأوروبية التي كانت تتردد على مركز مسقط التجاري فكانت تحمل منه إلى الهند بضائع شتى من أهمها النقود الفضية والذهبية واللؤلؤ والنحاس .

كما تفيد لنا الوثائق الإنجليزية بأهمية مركز مسقط التجاري حيث تذكر بأنه كان من المراكز التجارية المتميزة لأن تجارته كانت مهمة جداً وواسعة . وتستنتج هذه الوثائق وتقول بأن مركز مسقط مادام يحقق وفرة من المكاسب فإن التجارة فيه لابد وأن تظل مزدهرة لعهود طويلة، وتستطرد قائلة : ومن الغريب أن العديد من المراكز التجارية العثمانية أو الفارسية قد أصابها الكساد التجاري فترة من الزمن بينما بقي مركز مسقط نشطاً بتجارته وتجاره وتزداد مبيعاته ومشترياته، الأمر الذي جعل التجار فيه أكثر اندفاعاً وثراءً[٣٦] .

لقد تألق مركز مسقط التجاري كثيراً في عهد السلطان سعيد وتكاد المصادر العربية والأجنبية تجمع على هذه الحقيقة . وعلى الرغم من أن أوروبا بدأت منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر في صنع السفن التجارية وسكك الحديد وأجهزة البرق وغيرها، إلا أن مركز مسقط ظل يستقبل حوالي خمسة أثمان تجارة الخليج التي كانت تتوقف عنده طيلة الثلاثينات والأربعينات من القرن التاسع عشر بل بقيت السفن التجارية حتى عام ١٨٥٤م تنقل حوالي نصف هذه التجارة عبر ميناء مسقط التجاري، وعلى هذا الأساس احتفظ مركز مسقط

التجاري طيلة عهد السلطان سعيد بأهميته القصوى كمركز توزيع تجاري، وتفيد لنا إحدى الإحصائيات عن حجم العائدات المادية لمركز مسقط التجاري خلال عهد السلطان سعيد فتذكر بأن تجارة التوزيع وحدها كانت عوائدها تقدر بما يعادل (١,٨) مليون جنيه إسترليني[٣٧].

لقد تحقق الكثير من مظاهر الازدهار التجاري للمراكز التجارية العمانية خلال عهد السلطان سعيد ومنها مركز مسقط، فالعلاقات التجارية التي ارتبطت بها عمان ولاسيما مع الدول الأوروبية الكبرى وأمريكا دليل واضح على أهمية عمان ومراكزها التجارية وخاصة مركزي مسقط وزنجبار التجاريين.

وفي هذا الصدد يذكر لنا "مايلز" بأن الطراد الأمريكي (بيكوك) الذي قام بزيارة لمركز مسقط عام ١٨٣٣م وعلى ظهره المندوب الأمريكي (إدموند روبرتس) من أجل التفاوض مع السلطان سعيد على إقامة العلاقات التجارية بين البلدين، كانت هذه الزيارة بالذات حدثاً على جانب كبير من الأهمية خلال عهد السلطان سعيد لأنها جاءت برهاناً واضحاً عن أهمية عمان التجارية، وقد تعدت العالم القديم إلى العالم الجديد وأثارت اهتمامه[٣٨].

ولا ننسى في نهاية الحديث عن مركز مسقط التجاري أن ننوه بما كان يتميز به هذا المركز من أفضلية خاصة يحبذها التجار في جميع أرجاء العالم وكذلك الأمر مع الدول التي تبعث سفنها التجارية إلى مسقط سواءً للتصدير أو الاستيراد، تلك الخاصية هي استتباب الأمن والاستقرار وسيادة النظام في مركز مسقط التجاري أيام السلطان سعيد، الأمر الذي أدى إلى الازدهار التجاري العماني كما أصبح مركز مسقط سوقاً هامة ليس في عمان وحدها بل في منطقة الخليج العربي برمتها[٣٩].

الواقع أن صفة الاستقرار والأمن الذي كان يتمتع به المركز التجاري مسقط هي صفة هامة نسبة للمراكز التجارية في عموم المنطقة التي كان يسودها الفوضى والاضطراب بيد أن مركز مسقط كان يحظى بحكومة قوية حازمة وفرت الحماية والطمأنينة لجميع العاملين في التجارة وذلك من خلال تواجد السفن الكبيرة التي كانت مهمتها الحفاظ على الأمن وسلامة العاملين في مركز مسقط التجاري وحماية السفن التجارية العمانية والأجنبية على حد سواء، فضلاً عن حماية التجار بمختلف جنسياتهم والذي كان مركز مسقط التجاري يعج بهم طيلة أيام السنة[٤٠] .

ثانياً : مركز زنجبار التجاري :-

ظهر مركز زنجبار التجاري كمركز مهم ومرموق ضمن الدولة العمانية في عهد السلطان سعيد بعد أن ضم شرق أفريقيا إلى دولة عمان بصورة فعلية وبشكل رسمي عام ١٨٢٨م[٤١] .

وتعود أهمية عهد السلطان سعيد في زنجبار إلى تطبيقه سياسة اقتصادية كان يهدف بها زيادة دخل عمان لاستغلال الأراضي الأفريقية البكر، ومما يؤكد ذلك أن السلطان سعيد قد آثر عند انتقاله إلى زنجبار أن يأخذ معه الأثرياء وكبار التجار من العرب واليهود الذين قاموا بنشاط وافر في القسم الأفريقي من دولته[٤٢] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن صلات العمانيين بشرق أفريقيا قديمة تمتد إلى عدة قرون قبل تولي السلطان سعيد الحكم في عمان، إذ أن أول وصول لهم كان في عام ٧٠٠م عندما هرب سليمان بن عبد الجلندي وأخوه سعيد من عمان إلى شرق أفريقيا خوفاً من بطش الحجاج بن يوسف والي الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق[٤٣] .

وقد توطدت علاقات العمانيين بشرق أفريقيا بعدما تمكن العمانيون من طرد البرتغاليين من بلادهم، وكان وفد من أفريقيا الشرقية قد قدم إلى عمان مستنجداً بحاكم عمان يومئذٍ (سيف بن سلطان) طالباً منه طرد البرتغاليين من بلادهم أسوة بما فعلوه في عمان، فكان لاستجابة الحاكم العماني وقع كبير في نفوس الأفارقة الأمر الذي عزز من الصلات بين الجانبين كما أسهم هذا الأمر في تشجيع التجار العمانيين كثيراً على التجارة مع شرق أفريقيا، علماً بأن أعداداً ليست بالقليلة من التجار العمانيين كانت في شرق أفريقيا قبل هذه الأحداث(٤٤).

وهكذا أصبح الوجود العماني محبباً في شرق أفريقيا، لاسيما وأن غالبية العمانيين في شرق أفريقيا كانوا تجاراً يعملون على ازدهار الاقتصاد وتطور التجارة هناك.

وعندما تولى السلطان سعيد مقاليد الحكم في عمان تطلع برؤية التاجر إلى شرق أفريقيا، فهو الذي كان يردد دائماً أمام زائريه بأنه "لست إلا تاجراً"(٤٥).

فنزل لأول مرة زنجبار عام ١٨٢٨م وقد أدرك للوهلة الأولى أهمية موقع زنجبار وإمكانية نجاحه كمركز تجاري هام في المنطقة، لذلك، بذل جهودا جبارة في سبيل أن تصل زنجبار إلى المركز المرموق في عالم التجارة، إذ وضع الترتيبات بنفسه لتطور التجارة في زنجبار وازدهارها، ومن أهمها اتخاذ زنجبار عاصمة ثانية لبلاده وذلك في عام ١٨٣٢م والإقامة فيها. هذا القرار للسلطان سعيد أدى إلى نقل مقر حكمه وسلطته من مسقط إلى زنجبار أي أنه بدأ يحكم عمان من شرق أفريقيا بدل أن كان يحكم شرق أفريقيا من عمان.

وقد اختار السلطان سعيد زنجبار بالذات لعدة اعتبارات بالرغم من أن جزر ممباسا وكلوا وباتا كانت في ذلك الوقت أكثر أهمية من زنجبار لكنه آثر زنجبار على غيرها من الجزر لإدراكه بأنها تحظى بموقع مهم ومتميز وأن

لديها إمكانيات ممكن أن تحولها إلى مركز تجاري كبير في عموم شرق أفريقيا وأن لديها فرصاً عديدة للتجار، كما أنها ستصبح يوماً مركزاً هاماً لتجمع وتوزيع مختلف البضائع التي تأتي من الداخل إلى الساحل(٤٦)، فضلاً عن إدراكه بأن زنجبار تحمل مواصفات مغرية للتجار دولاً وأفراداً، وذلك لتمتعها بموانئ عميقة تصلح لرسو السفن الكبيرة والضخمة كما أن لديها موارد لا تنضب من مياه الشرب النقية التي لا مثيل لها على طول الساحل الأفريقي بأكمله وأن ذلك سيكون سبباً في جذب الكثير من السفن المارة بالمنطقة .

ولنفس الأسباب المتقدمة الذكر اتخذ السلطان سعيد من زنجبار مقراً لحكمه وعاصمة ثانية لعمان(٤٧)، وقد تم رفع العلم الأحمر القاني على مباني زنجبار وعموم مناطق شرق أفريقيا .

ولا ننسى في هذا الصدد وجود دوافع وأسباب أخرى لقرارات السلطان سعيد بهذا الشأن منها شخصية كمناخ زنجبار المعتدل والذي يختلف كثيراً عن مناخ مسقط الحار جداً فضلاً عن ابتعاده عن الاضطرابات السياسية سواء الداخلية منها أو التي كانت قائمة يومئذٍ في عموم منطقة الخليج العربي .

لقد بذل السلطان سعيد جهوداً مكثفة من أجل تحويل زنجبار إلى عاصمة متميزة ومهمة لبلاده عمان، وذلك بإقدامه على زراعة محصول القرنفل هناك وقد شجعه على ذلك تربة زنجبار الخصبة، إذ جرب السلطان سعيد زراعة محصول القرنفل في زنجبار منذ قدومه إليها، وقد نجحت تجربته نجاحاً منقطع النظير وأتت ثمارها بينما فشل الآخرون الذين حاولوا قبله تجربة زراعة القرنفل في شرق أفريقيا أمثال الفرنسيين .

والواقع أن نجاح زراعة محصول القرنفل في زنجبار كان أحد الأسباب الرئيسية في ازدهار مركز زنجبار التجاري، حيث بدأ هذا المركز يزود العالم بهذا المحصول سنوياً(٤٨) .

ومن الجهود الأخرى للسلطان سعيد والتي أدت إلى نجاح وتألق مركز زنجبار التجاري هي العمل على فرض سيطرته على جميع مناطق شرق أفريقيا وإعادة اتصالها بالعالم الخارجي بعد أن كانت مناطق متفرقة ومجهولة(٤٩) .

كما أقدم السلطان سعيد على إقامة أفضل العلاقات التجارية مع المناطق القريبة والمحيطة بالمركز زنجبار من أجل أن يتمتع هذا المركز بالأمن والاستقرار والذي عادة ما يكون هذا الأمر سبباً رئيسياً في جذب التجار إليه، فضلاً عن توسيع شبكة علاقاته التجارية مع دول العالم وخاصة الكبرى منها أمثال بريطانيا وفرنسا، وكذلك فتح علاقاته التجارية المتميزة والجديدة مع الولايات المتحدة الأمريكية، إذ حدد السلطان سعيد أمريكا في مزاولة تجارتها مع عمان من خلال مركز زنجبار التجاري فقط، وقد عاتب الرئيس الأمريكي يومئذٍ (فيللمور) السلطان سعيد على ذلك حيث بعث إليه برسالة ذكر فيها بأن أمريكا تفتح جميع موانئها للسفن العمانية بينما أنتم تحددون للسفن الأمريكية ميناءً واحداً فقط وهو ميناء زنجبار(٥٠) .

ومن الجدير بالذكر أن السلطان سعيد كان موفقاً في اختيار زنجبار كمركز تجاري مهم لبلاده عمان، وقد بذل الجهود الكبيرة من أجل نجاح هذا الاختيار، وبالفعل، فقد تحولت زنجبار قبيل نهاية عهده من مجموعة أكواخ صغيرة إلى أضخم وأهم مدينة على ساحل شرق أفريقيا، الأمر الذي شجع الكثير من العمانيين والعرب على الاستيطان فيها(٥١) .

كما تحول محصول القرنفل فيها إلى محصول نقدي أخذ يدر أرباحاً طائلة للدولة العمانية ويعَدُّ اليوم عماد الإنتاج في شرق أفريقيا، إذ أسس السلطان سعيد إبان عهده العديد من المزارع الكبيرة في شرق أفريقيا(٥٢) .

ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن السلطان سعيد عندما شعر بأن جهوده قد أثمرت في زنجبار، وقد تحقق له النجاح الباهر فيها، عند ذلك بدأ يتعلق بهذه

المنطقة فقضى معظم سنوات حكمه فيها . وكثيراً ما كان يتمنى أن توافيه المنية ويدفن في زنجبار، هذا وقد تحققت له هذه الأمنية إذ وافته المنية وهو في طريقه من عمان نحو زنجبار في التاسع عشر من شهر أكتوبر (تشرين الثاني) عام ١٨٥٦م، حيث دفن هناك، وقد قابله أهالي زنجبار بالوفاء حيث حزن الجميع وعلقت الأعلام السود على كل دار في زنجبار لأنه كان السبب في رخاء بلادهم وتحسين مستواهم المعيشي واستقرارهم السياسي فضلاً عن تعامله مع الجميع على قدم المساواة دون تفريق أو تمييز[٥٣] .

ثالثاً : مركز صحار التجاري :

يعد مركز صحار التجاري من المراكز التجارية العمانية المهمة خلال عهد السلطان سعيد وهو يملك إرثاً تاريخياً بعيد المدى، إذ يرجع تاريخ وجوده كميناء ومركز تجاري هام إلى الألف الثالث قبل الميلاد[٥٤] .

كانت صحار التي تقع إلى الشمال الغربي من العاصمة مسقط إحدى أسواق العرب السنوية قبل الإسلام، وكان سوق صحار يقام في اليوم الأول من شهر رجب ويستمر لمدة خمسة أيام، ولدى ظهور الإسلام أضحت صحار مركزاً رئيسياً للتجارة وقد اشتهرت بنسج الثياب تلك التي انتشرت في عموم الجزيرة العربية منذ القرن الأول للهجرة . ويذكر لنا (الواقدي) في غزوة الحديبية عام ستة للهجرة : "بأن خرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الاثنين فاغتسل في بيته ولبس ثوبين من نسيج صحار"[٥٥] .

كما وصف المقدسي المركز التجاري صحار بأنه كان المدخل للصين والممر إلى الشرق والعراق واليمن[٥٦] .

والواقع، أن أهمية مركز صحار التجاري خلال الحقب التاريخية المختلفة ناجمة عن موقعه الاستراتيجي المهم واعتماد تجارته بالدرجة الأولى على تجارة

التوزيع، فضلاً عن خصوبة تربة صحار زائداً أنها كانت العاصمة لعمان لفترة طويلة من الزمن، كما أنها أصبحت مقراً لولاية أحمد بن سعيد مؤسس سلالة البوسعيد التي مازالت تحكم عمان ليومنا هذا .

أما صحار خلال حكم السلطان سعيد فلم تعد العاصمة السياسية للبلاد كما كانت في العهود السابقة، حيث انتقلت العاصمة في عهد السلطان سعيد إلى مسقط وزنجبار ولكن صحار احتفظت بطابعها الدولي كعاصمة اقتصادية لعمان خلال حكم السلطان سعيد، كما احتفظت بمواصفات المركز التجاري المرموق في البلاد والمنطقة، حيث ظل موقعها متميزاً إذ ربط صحار بسواحل أفريقيا والهند والشرق الأقصى فضلاً عن تربتها الخصبة جداً ومياهها النقية وزراعاتها الكثيفة(٥٧) .

لقد بذل السلطان سعيد أيام حكمه لعمان جهوداً كبيرة من أجل تطوير مركز صحار التجاري وذلك من خلال إجراء التسهيلات التجارية وتواجد السفن الكبيرة من أجل الحماية واستتباب الأمن علاوة على إقدامه على تخفيض التعرفة الجمركية وإقامة أفضل العلاقات التجارية مع العديد من دول العالم والتي أدت إلى إثراء هذا المركز وازدهاره، كما أدت إلى أن يزدحم هذا المركز والميناء التجاري بالسفن التجارية من مختلف الجنسيات والتي كانت تحمل العديد من السلع سواء المصدرة منها أو المستوردة، يصحب ذلك تزويد المركز للسفن المارة به أو المتوقفة فيه بالإمدادات المائية العذبة والفواكه، كما كان مركز صحار التجاري يقوم بتصدير بعض المنتجات ومن أهمها النحاس العماني المتميز بجودته الفائقة، كما كانت ترسو فيه السفن التجارية العملاقة والتي كانت تنقل مختلف السلع والبضائع من صحار نحو العالم(٥٨) .

في ختام هذا المحور لابد من القول بأن المراكز التجارية التي تقدم شرحها لم تكن هي المراكز التجارية الوحيدة في عمان خلال عهد السلطان سعيد وإنما كان هناك العديد من المراكز التجارية الأخرى والمنتشرة على طول السواحل العمانية بشطريها الآسيوي والأفريقي إلا أنها جميعاً لا ترقى إلى مصاف المراكز

التجارية التي قد ورد شرحها آنفاً، وإنما هي مراكز ثانوية من حيث الأهمية التجارية والعوائد الاقتصادية للبلاد أمثال مطرح وصور وظفار وممباسا وغيرها .

الاستنتاجات

توصلنا من خلال البحث إلى ما يلي :

١ - كان الاهتمام الأول للسلطان سعيد بن سلطان خلال فترة حكمه لعمان هو العمل على تطوير التجارة في عمان فقذ كان يفضل التجارة على أي شيء آخر، وكان كثيراً ما يردد أمام زائريه مبتسماً "لست إلا تاجراً"[٥٩] .

٢ - كان اهتمام السلطان سعيد الشديد بالتجارة وخبرته فيها وفراسته قد دفعه إلى إلحاق شرق أفريقيا بدولته عمان واختيار زنجبار عاصمة ثانية لحكمه ومركزاً تجارياً مهماً، وقد شجعه مناخ زنجبار المعتدل وتربتها الخصبة على إدخال زراعة القرنفل في شرق أفريقيا والاتجار بهذا المحصول ذي المردود الاقتصادي الكبير للبلاد .

٣ - ومن أجل تطور التجارة في عمان وازدهارها، أقدم السلطان سعيد على إقامة أفضل العلاقات التجارية مع كبرى الدول في العالم مثل بريطانيا وفرنسا وأمريكا فضلاً عن الدول الصغرى ودول المنطقة إذ كان كثيراً ما يفضل العلاقات التجارية على العلاقات الدبلوماسية مع تلك الدول رغبة منه في دفع التجارة في عمان نحو التقدم والانتشار، وهذا هو ما حصل بالفعل للتجارة في عمان خلال عهده حتى لقبت عمان في عهده بـ (الإمبراطورية التجارية)[٦٠] .

دكتور فاضل محمد الحسيني
جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات

٣٢ – عمان في أمجادها البحرية، سلسلة تراثنا، العدد الثامن، الطبعة الثالثة، عمان، ١٩٩٤م، ص٥٩ .

٣٣ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٥٢٠ .

٣٤ – جريجو ريف، سيرجي، عمان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مجلة الوثيقة، العدد ٤١، السنة ٢٠٠٢م، البحرين، ص١٥٩ .

٣٥ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص.ص٥٠٧-٥١٦ .

٣٦ – **Malcolm, Marine Records, Vol. 891, August 15, 1790, Report on the Commerce of Arabic and Persia by Samuel Monesty and Harford Jones.**

٣٧ – هولي، مرجع سابق، ص١٨٧ .

٣٨ – **Miles, OP.CIT, P.334.**

٣٩ – المعمري، مصدر سابق، ص١١ .

٤٠ – عمان في التاريخ، مصدر سابق، ص٥٠٧ .

٤١ – روث، مصدر سابق، ص١١٥ .

٤٢ – قاسم، مصدر سابق، ص٨٣ .

٤٣ – هولي، مرجع سابق، ص٤٣ .

٤٤ – روث، مصدر سابق، ص٩ .

٤٥ – فيليبس، مصدر سابق، ص١٢٦ .

٤٦ – المعمري، مصدر سابق، ص٧٣ .

٤٧ – بن حبيب، مصدر سابق، ص٢٥ .

٤٨ – روث، مصدر سابق، ص.ص١١٧-١١٨ .

٤٩ – فيليبس، مصدر سابق. ص١٤٢ .

٥٠ – **Sanger, R., The Arabian Peninsula, New York 1924, P. 188.**

٥١ – المعمري، مصدر سابق، ص٧٤ .

٥٢ – هولي، مرجع سابق، ص٤٣ .

٥٣ – روث، مصدر سابق، ص١٣٣ .

٥٤ – بن حبيب، مصدر سابق، ص٣ .

٥٥ – العاني، عبد الرحمن عبد الكريم،دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية، الطبعة الثانية، عمان ١٩٨٦م، ص١٩ .

٥٦ – بن حبيب، مصدر سابق، ص١٧ .

٥٧ – هولي، مصدر سابق، ص١٨٣ .

٥٨ – بن حبيب، مصدر سابق، ص١٧ .

٥٩ – فيليبس، مصدر سابق، ص١٢٠ .

٦٠ – هولي، مصدر سابق، ص١٧٦ .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع المحلية والعربية والمعربة :

١ — جريجو ريف، سيرجي، عمان في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مجلة الوثيقة، العدد ٤١، السنة ٢٠٠٢، البحرين .

٢ — بن حبيب، مال الله بن علي، ملامح من تاريخ عمان، ترجمة محمد محمد كامل، عمان بدون تاريخ .

٣ — روث، رودلف سعيد، ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦م، ترجمة حسيب القيسي، البصرة ١٩٨٣م .

٤ — العاني، عبد الرحمن عبد الكريم، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الإسلامية، الطبعة الثانية، عمان ١٩٨٦م .

٥ — عمان في أمجادها البحرية، سلسلة تراثنا، العدد الثامن، الطبعة الثالثة، عمان ١٩٨٦م .

٦ — عمان في التاريخ، مجموعة البحوث التي ألقيت في ندوة "عمان في التاريخ" التي انعقدت في العاصمة مسقط عام ١٩٩٤م، سلطنة عمان ودار إميل للنشر المحدودة، لندن ١٩٩٥م .

٧ — فيليبس، وندل، تاريخ عمان ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الرابعة، عمان ١٩٩٤م .

٨ — قاسم، جمال زكريا، دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠-١٩١٤م، الكويت ١٩٧٤م .

٩ — لوريمر، جون جوردون، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة مكتب الترجمة بديوان أمير قطر، بيروت ١٩٧٠م .

١٠ – العمري، أحمد حمود، عمان وشرق أفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، عمان ١٩٧٩م .

١١ – هولي، دونالد، عمان ونهضتها الحديثة، ترجمة فؤاد حداد وعادل صلاحي، لندن ١٩٧٧م .

١٢ – أبو ياسين، سمير محمد علي، العلاقات العمانية البريطانية ١٧٩٨–١٨٥٦م، البصرة ١٩٨١م .

ب – المصادر والمراجع الأجنبية :

١ – الوثائق :

Malcolm, Marine Records, Vol. 891, August 15, 1790, Report on the Commerce of Arabic and Persia, by Samuel Monesty and Harford Jones.

٢ – الكتب :

A - Coupland, R, East Africa and it`s Invaders, from the Earliest Times to the Death of Sayyid Said in 1856, London 1945.

B - Coupland R. The Exploitation of east Africa, 1856-1890, London.

C - Miles, S.B., Countries and Tribes of the Persian Gulf, London 1966.

D - Sanger, R., The Arabian Peninsula, New York 1924.

تطور خطوط الملاحة البح

بقلم : الدكتور مهيوب غالب أحمد كليب

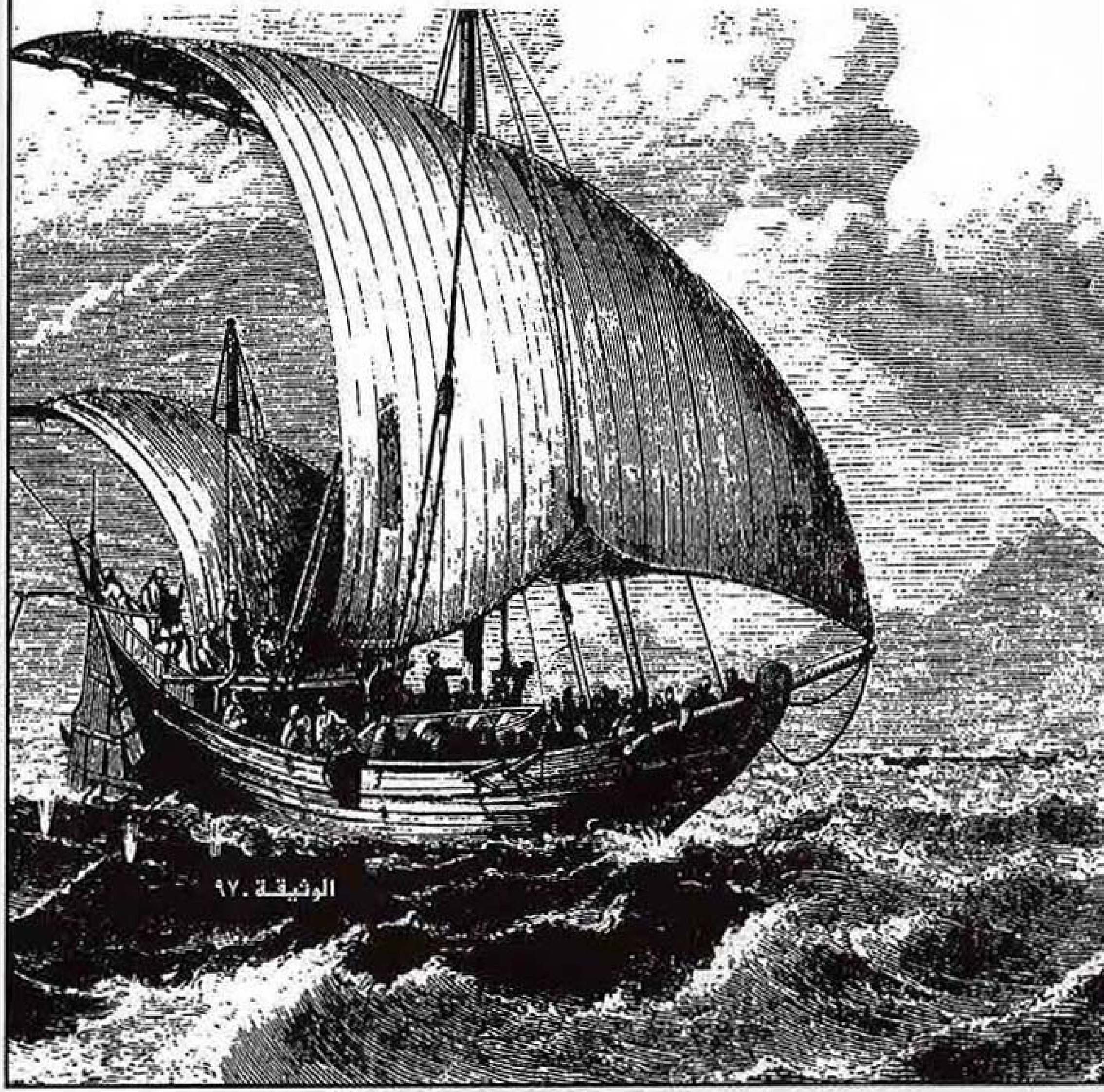
تمهيد



ساعد الموقع الجغرافي للجزيرة العربية على طريق التجارة الدولية، بين بلدان العالم القديم، في توفير مقومات نمو مراكزها الحضارية وازدهارها خلال العصور التاريخية القديمة بدءا من نهاية العصر الحجري الحديث، وانتهاء بعصر التدوين، أي عصر الكتابة . ففي شرقي الجزيرة العربية وعلى طول الساحل الغربي للخليج العربي توافرت المراسي الطبيعية والمرافئ المحمية، والمياه الصالحة للشرب؛ (عيون، آبار . . الخ)، خاصة في مناطق مثل : جزيرة البحرين وأم النار وفيلكا وواحة الاحساء .

ـدية حول الجزيرة العربية

ـين الألفين الثالث والأول قبل الميلاد



وفي جنوبي الجزيرة العربية وجنوب شرقيها توافرت كذلك المرافئ الملائمة للملاحة البحرية والتجارة الدولية (ميناء عدن وميناء قناء وميناء خور روري وجزر عبد الكوري وغيرها على التوالي من الغرب إلى الشرق) . وكان لتوافر المواد الأولية أن ساعد على التبادل التجاري بين أبناء هذه المنطقة وبين سكان وادي السند وكذلك سكان مناطق الهلال الخصيب (بلاد الرافدين وسوريا) ومصر، الذين كانوا يحتاجون منها إلى المواد الأولية الضرورية والسلع الكمالية غير المتوافرة في بلادهم .

إن تتبع مراحل تطور الملاحة البحرية في منطقة جنوب غربي آسيا (جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها)، وإبراز دور العرب في الملاحة البحرية، متلازماً مع نشاطهم التجاري، خلال الحقبة الزمنية الممتدة بين الألفين الثالث والأول قبل الميلاد لم تدرس بشكل وافٍ . فقد نشرت دراسات عن هذا الموضوع بأشكال مختلفة، لكنها تفتقر إلى التحليل والشمولية بصورتها المنهجية والعميقة . صحيح أن جورج حوراني كتب عن الملاحة البحرية في المحيط الهندي بصورة عامة، لكن الصحيح أيضاً أنه لم يتمكن من استخدام المادة العلمية التي وردت في مؤلفه الذي أوردناه هنا في أكثر من موضع، بحيث يشعر القارئ من خلاله بحضورٍ شخصية الباحث وإمكانية توظيفه للمادة العلمية بصورة ممتعة . فضلاً عن ذلك فقد نشرت أعمال متقطعة وردت هنا وهناك . وبعبارة أخرى توجد لدينا مادة تاريخية لكنها بحاجة إلى تحليل ودراسة جيدة . أي أننا بحاجة إلى دراسة تاريخية تحليلية معمقة لتاريخ تطورٍ الملاحة البحرية حول جزيرة العرب ومساهمة العرب في ذلك . فضلاً عن مساهمتهم في صناعة السفن (وإن بصورة مقتضبة) وفي

تطور التجارة الدولية، خلال الحقبة الزمنية التي حددها البحث، وسنحاول في هذه الدراسة أن ننجز جزءاً من هذه المهمة . على أننا ربما نوسع هذا الإطار الزمني قليلاً إلى الوراء أو إلى الأمام، إذا كان ذلك ضرورياً .

لمحة سريعة عن المراكب العربية

اشتهر العرب في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها ببناء القوارب البحرية منذ القدم، فقد صنعوها إما من الجلود أو من لحاء الأشجار وجذوعها، فضلاً عن صناعة القوارب من قصب "الجرع" وسعف النخيل . ويوجد من يزعم أنه لم تتوفر للعرب فرص الإبحار في مياه بحر الخليج العربي والبحر العربي، ناهيك عن مياه المحيط الهندي، وأنهم كانوا تجار قوافل برية ليس إلا . فالعرب الجنوبيون، مثل غيرهم من الشعوب التي تعيش على شواطئ البحار كانوا قد بدأوا حياتهم بالمطيل والأطواف والأرماث وزوارق من الجلد، لكنهم انتقلوا فيما بعد إلى بناء القوارب[1] .

والواقع أن ركوب البحر كان إحدى المهن التي عمل بها معظم العرب الذين سكنوا السواحل البحرية، وكان أولئك البحارة يجلبون من الهند كل ما تحتاجه ليس فقط بلاد العرب في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها، بل ما تحتاجه تلك المناطق العربية البعيدة مثل بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر . فضلاً عما تحتاجه مناطق حوض البحر المتوسط الغربية . إذ اشتهر العرب الجنوبيون ببناء السفن البحرية من

أخشاب كانت تنتج محلياً . يقول ابن جبير – وهذا رد على من ينكر أن بلاد العرب الجنوبية لم تنتج الأخشاب في ذلك الوقت – : "إن خشب بناء السفن في عيذاب كان يجلب من الهند واليمن"[٢] .

ويؤكد نزيه مؤيد العظم : "وعلى شاطئ البحر الأحمر، رأيت النجارين يعملون طيلة النهار في بناء المراكب الشراعية . ويجلبون الخشب لبناء هذه المراكب في (أنس) وغيرها من الأصقاع اليمنية المشهورة بأحراجها الكبيرة . ولتلك المراكب أسماء متعددة مرتبة بالنسبة لحجم المراكب، فيقال لأصغرها الهوري، ثم الفطيرة فالزعيمة فالسنبك فالساعية فالبغلة فالسفينة"[٣] .

ومثلما استخدموا الحبال المصنعة من ليف النخيل في شد جذوع الرمث بعضها إلى بعض، استعملوها كذلك في خياطة جوانب القارب (وهي صناعة استخدمتها كافة الشعوب التي قطنت السواحل البحرية) والأضلاع التي تسند قاع القارب[٤] . وهي مرحلة زمنية انتهت بظهور مسامير الحديد وشيوع استخدامها .

وفي المقابل نرى الإنسان العربي في منطقة الخليج العربي يبني زوارق بلغ طول الواحد منها نحواً من عشرة أقدام . وكانت تبنى من سعف النخيل، وليس من الخشب، يركب فيها شخص وأحياناً شخصان . وكان يوضع لتلك الزوارق مقدمة ومؤخرة، ويطلق عليها اسم "هوايرية"[٥]، فضلاً عن ذلك بنيت زوارق من القصب . وقد أكدت البعثة الأثرية الكويتية – السلوفاكية المشتركة خلال حفرياتها في موقع "الخضر" أنه تم العثور على قطعة قار تحمل ختماً مع علامات حبل سفينة، وربما كان الغرض من ذلك الختم هو ختم الحاويات، كما

تحمل قطعة القار آثار قصب على أحد جانبيها وأثار قشريات بحرية على الجانب الآخر . وهو دليل على صناعة السفن من القصب وتجهيزها بمادة سوداء لتكون مانعة لتسرب المياه[٦] . وأشارت المصادر السومرية إلى : "إن أول ذكر لدلمون في النصوص المسمارية كان في نص لأورنانشة مؤسس سلالة لكش الأولى والذي ذكر أن سفن دلمون كانت تنقل له الأخشاب كجزية من بلاد أجنبية ، مما يدلل على تملك دلمون لسفن لابد وأنها كانت كثيرة قادرة على السير في أعالي البحار"[٧] .

وتذكر كذلك معلومات من عهد سرجون الأكادي (النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد) ، حول علاقات هذا الملك بدلمون وملوها (ملوخا) ، واللتين كانتا تمدانه بالمواد الخام[٨] . وقد كانت تلك الزوارق تشبه إلى حد كبير الزوارق المصنوعة من نبات البردي التي كان يستعملها المصريون القدماء قبل ذلك بوقت طويل ، واستعملها كذلك الأحباش في بحيرة تانا[٩] . على أن جوانب القوارب كان يتم تقويتها بألواح كانت تشق من جذوع أشجار خاصة كانت تنمو في الأحراج الجنوبية الغربية لبلاد العرب (أي في السهل التهامي) . فقد أشار الدكتور جواد علي إلى أنه كان على أصحاب معامل السفن العرب استيراد الخشب القوي الصالح لبناء السفن من الخارج أو شراء السفن الجاهزة من الأسواق الخارجية . وفي كلتا الحالتين يتكلف المشتغلون بالتجارة البحرية تكلفة باهظة ويكونون عالة في قوتهم وفي أعمالهم على الخارج[١٠] .

ومن المراكب العربية القديمة ، والتي استمرت حتى وقت قريب (البطيل أو البتيل) و (البغلة) ، وهما من المراكب المعروفة جيداً في منطقة الخليج العربي . ولكل منهما على مؤخرته تمثال لرأس حصان .

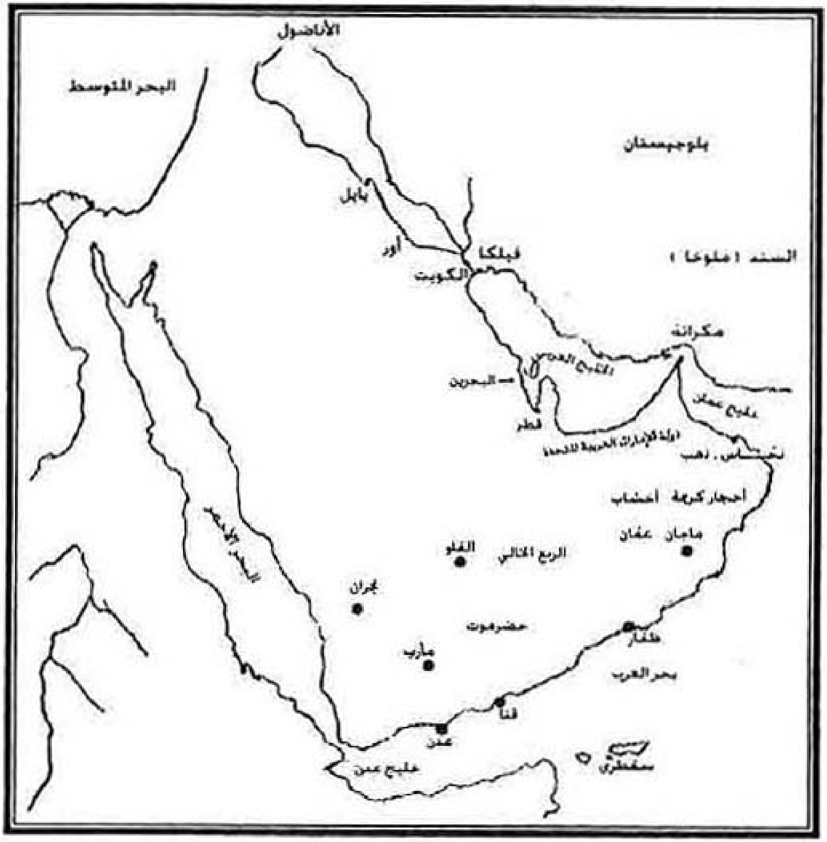
يختلف البطيل عن البغلة بطرف مقدمته الذي كان يشبه الكمان، ومن ثم بذنب في مؤخرته . وتشير بعض الروايات أن البطيل كان قد استخدم في معارك بحرية كثيرة[11] . وترد إشارات كثيرة في القرآن الكريم وفي بعض المعاجم العربية عن البحر ووسائل ركوبه، باسم "اليمّ"[12] [في سورة طه : الآيات ٣٩، ٧٨، ٩٢، وفي سورة القصص : الآية ٧ ؛ وفي سورة الأعراف : ١٣٥] . والفلك إشارة إلى سفينة نوح عليه السلام، "والفلك التي تجري في البحر" [سورة البقرة : ١٦٤] . وذكرت كذلك السفينة في [سورة الكهف : ٧٢، ٨٠ ؛ كذلك سورة العنكبوت : ١٥] . وفي المعاجم العربية يتكرر ذكر السفن والمراكب والسواحل والشواطئ . . .الخ[13] . الأمر الذي يعني أن العرب وإن لم يكونوا جميعهم على علم بالبحر وركوبه ففي الأقل كان عرب السواحل يعرفون بصورة جيدة البحر وكيفية التعامل معه .

الملاحة البحرية خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد

عمل عرب الجزيرة العربية في التجارة البحرية منذ العصور السحيقة، وتاجروا مع جهات مختلفة، سواءً في حوض المحيط الهندي أو في بلاد الشام والعراق وحوض البحر المتوسط . وتُحدثنا الكثير من المصادر والأدبيات حول النشاط البحري للعرب والمتعلق بالملاحة البحرية وكذلك بالتجارة . إذ تمتلك الجزيرة العربية سواحل طويلة تحيط بها من ثلاث جهات، أما حدها الشمالي فهو أرض

تتصل بالعراق وببلاد الشام . وقد عرف أهل السواحل البحر وعركوه، وعملوا على استغلال ثرواته قدر طاقتهم، وتعاملوا مع أهل السفن الذين كانوا يقصدونها من مسافات بعيدة، وركب جمع منهم السفن للاتجار مع السواحل المقابلة[١٤]، إلا أننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط متى بدأت صلة سواحل بلاد العرب الجنوبية والشرقية بسواحل الهند الغربية . على الرغم من أنه توجد آراء تقول أنها ربما بدأت في الوقت الذي بدأت فيه العلاقـة التجاريـة بين السومريين وسكان وادي السند[١٥]، أي حينما بدأت حاجة سكان بلاد الهلال الخصيب (بلاد الرافدين وسوريا) ضرورية إلى النحاس والمعادن والأحجار الكريمة واللؤلؤ والعقيق والأخشاب والعاج والقطن واللازورد، والبخور والتوابل وغير ذلك .

وقد كان سكان دلمون ومجان وجزيرة أم النار وغيرها يزاولون التجارة إما عن طريق البر، أو عن طريق البحر عبر المياه القريبة من السواحل، - أو كما قال أحد الباحثين "عن طريق المساحلة (خريطة رقم ١)"[١٦] . وبعبارة أخرى فقد بدأت العلاقة بين سواحل بلاد العرب مع الساحل الهندي في الوقت الذي بدت المدن السومرية بحاجة للسلع القادمة من شبه القارة الهندية مثل الأخشاب والعقيق واللازورد وغيرها . لذلك أكدت بعض الأدبيات العربية على أن النشاط التجاري بين الهند وسواحل بلاد العرب وجنوبي العراق يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد . وقد أقامت جاليات هندية على سواحـل الخليج المختلفـة في عمان والبصرة ودلمون وغيرها . وفي المقابل أقامت جاليات عربية في مناطق متفرقة من مكرانة وهندوستان[١٧] .



(أ)

حول أهم الموارد التجارية (الاقتصادية) في منطقة الخليج العربي

أكدت الأبحاث الأثرية منذ بداية خمسينات القرن الماضي، التي أجرتها بعثات أوروبية مختلفة ؛ في البحرين وفي شبه جزيرة قطر وجزيرة فيلكا وشمال شرقي عمان وفي جزيرة أم النار في دبي على أن البحرين (دلمون) هي المنطقة "المقدسة" لدى السومريين . وخلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد كانت دلمون هي الوجهة التي يؤمها البحارة السومريون والهنود وغيرهم . وكان أولئك البحارة يتجهون شمالاً نحو بلاد ما بين النهرين وجنوباً نحو شمال شرقي عمان وساحل الهند الغربي[١٨] . ومن ثم أعطتنا نتائج تلك الأبحاث صورة واضحة عن المكانة التي ميزت هذا الجزء من الوطن العربي في التاريخ العام للحضارات القديمة . لقد أكدت تلك المعلومات ليس فقط النشاطات المتعددة للجناح الشرقي للجزيرة العربية، ولكنه قد لعب دور الطريق البحري الدولي للتجارة العالمية[١٩] . فحملت السفن من الهند إلى دلمون وجنوب بلاد ما بين النهرين : الأخشاب والقطن والعقيق واللازورد، ومن مجان وملوها (وتسمى في بعض الأدبيات — ملوخا) : المعادن المختلفة[٢٠] . وهنا يشير ليمنس إلى أنه تم العثور على نصوص تبين من خلال المعلومات التي احتوتها على أنها كانت بمثابة عقود واتفاقيات بين تجار من أور ومن دلمون . وكان النحاس والفضة واللؤلؤ هي السلع الأساسية التي تنقل من دلمون إلى أور، نظراً للطلب المتزايد عليها في بلاد الرافدين . على أن النحاس ربما كان يتم نقله من مناجم المعدن في مجان (عمان) ومن ملوها . وكان بحر الخليج يعج بسفن الدلمونيين التي تنقل البضائع إلى جنوب بلاد الرافدين[٢١] .

عرف الباحثون أن منطقة شرقي الجزيرة العربية كانت مأهولة بالسكان منذ أواخر الألف الخامس قبل الميلاد . فقد تضافر عدد من العوامل ساعدت على استقرار أولئك السكان وقيام حضارتهم فيها، وكانت دلمون المركز الأول لتلك الحضارة . إذ تم العثور على أقدم الأدلة لبدايات تلك الحضارة في جزيرة تاروت، التي كانت العاصمة الأولى لها، وسرعان ما نما دور جزيرة البحرين لتصبح لاحقاً عاصمة دلمون، وقد ورثتها فيما بعد ممالك أخرى من ضمنها جرهاء — كما سيأتي الحديث لاحقاً —[٢٢] . وتشير بعض النصوص السومرية إلى أن دلمون كانت تتمتع بقدسية خاصة . إذ رويت عنها الأساطير الدينية وفاضت، وعبدت فيها الآلهة، مثل بقية مدن بلاد ما بين النهرين . وأن أسطورة أنكيدو وننجرسي، وملحمة جلجامش، فضلاً عن أسطورة الحياة تؤكد بأن اتصالاً طبيعياً كان قائماً بين بلاد الرافدين ومناطق الخليج العربي، ومنها دلمون[٢٣] .

وجاء في موسوعة الخليج العربي الفقرة الآتية : "كانت دلمون مشهورة عند السومريين، ونعتتها أساطيرهم بالطهر والنقاء وتحدثت أسطورة أنكي وننخو وزاك عن علاقة أنكي بها وكونها أرض سلام وأمان وصحة ومياه وافرة، وتتحدث الأسطورة عن اتصال أنكي بزوجته في دلمون، ومن ثم أمره الإله أوتوا (إله الشمس) أن يملأ الجزيرة بالماء العذب فكان له ما أراد، فتحولت دلمون إلى جنة خضراء مليئة بالحقول . فالجنة السومرية حسب هذه الأسطورة كانت في دلمون"[٢٤] .

ومن خلال ما ذكرته الأسطورة السومرية عن نبتة الخلود التي أخبر بها أوتانا بشتيم جلجامش، فلربما كان المقصود بتلك النبتة نبتة اللؤلؤ التي تتوافر بكثرة في دلمون . وتطلق أسطورة الطوفان السومرية على دلمون اسم أرض العبور[٢٥] . وأشارت نتائج الأبحاث الأثرية التي أجرتها بعثة كويتية سلوفاكية مشتركة بداية العام ٢٠٠٧ في جزيرة فيلكا، إلى أن الموقع الذي تمت الحفريات فيه (موقع الخض)، كان ممتلئا "بالصدف والفخار الأحمر وأحجار المباني المبعثرة التي تشكل دليلاً على حضارة دلمون" . وقد تطورت تلك الحضارة بفضل الموقع الممتاز على طرق التجارة البحرية، الذي كانت تتمتع به دلمون والتي تربط بلاد ما بين النهرين بحضارة وادي السند، ولتصبح بذلك أحد أكبر المراكز التجارية في العالم القديم . وكانت البحرين مركزاً لثقافة دلمون . "على أنها مع أوائل الألفية الثانية امتدت تلك الحضارة إلى مناطق شمالي الخليج العربي بما فيها جزيرة فيلكا"[٢٦] . وتم العثور كذلك في نفس موقع "الخضر" على أدوات وأوانٍ فخارية وجِرار وأشياء أخرى من النحاس واللؤلؤ والخرز وعدد كبير من الأختام الدلمونية[٢٧] .

إن اكتشافات جديدة لعلم الآثار في أية منطقة من العالم تضيف معلومات جديدة أكثر وضوحاً على تاريخ هذه المنطقة أو تلك، ومن ثم يترك أثره دون شك على مجمل الدراسات التاريخية والحضارية السابقة . وبعبارة أخرى فإن حدود معرفتنا بالماضي تكون رهينة بما يتم الكشف عنه في أثناء القيام بالحفريات الأثرية ومن ثم فإن ما هو

معروف اليوم من تفاصيل لأمور عدة يمكن أن يكون غير ذلك غداً بسبب الاكتشافات الجديدة وهكذا[٢٨] .

وبسبب الموقع الجغرافي الهام الذي تحتله أرض الجزيرة العربية، فقد تشكلت على الدوام في أراضيها أو في طرقها الساحلية نقاط الاجتياز الأساسية بين مراكز الحضارات القديمة . فقد نال الخليج العربي شهرة كبيرة منذ الألف الثالث قبل الميلاد بسبب قدرتـه على استيعاب خطوط المواصـلات البحريـة القديمة[٢٩] . وكانت مهنة التجارة البحرية في هذه المنطقة من العالم القديم خاصة بسكان السواحل المحيطة بها ؛ في بلاد العرب الجنوبية والشرقية، وسواحل الهند . مثلما كانت مهنة التجارة البحرية في الجانب الآخر من بلاد العرب - أي في مناطق حوض البحر المتوسط — محصورة بأيدي الفينيقيين والمصريين والإغريق .

ترافقت معرفة خطوط الملاحة البحرية حول الجزيرة العربية من ناحية الشرق وساحل الخليج العربي مع استيطان مجاميع مهاجرة من بلاد ما بين النهرين في شرقي الجزيرة العربية . الأمر الذي يعني أن الإبحار من هناك إلى هذه المنطقة كان قد تم بعد معرفتها بصورة مقبولة . على أنه يجب ألا يغيب عن البال أن البحارة الدلمونيين كانوا قد سافروا خلال حقبة جمدة نصر إلى مناطق بعيدة . وسلكوا دروباً محفوفة بالمخاطر، ومن ثم حصلوا على معلومات غير قليلة عن أماكن ومحطات تجارية بحرية محددة . إن التجارة البحرية بين مناطق السند ووادي الرافدين قديمة العهد . . فقد حملت السفن من الهند

الأخشاب والعقيق الأحمر والقطن واللازورد (تذكر النصوص المسمارية أن اللازورد يستورد من ملوها، على الرغم من أنه لا يمكن العثور عليه إلا في القسم الغربي من بلاد الهند "في أفغانستان" . وهذا ما يرجح كون ملوها (أو ملوخا) تطابق مراكز حضارة السند القديمة . وتشير بعض المعلومـات التاريخيـة القديـمة إلى أن الملـوك الكاسـيين (أو الكاشيين) كانوا قد أكثروا من إرسال اللازورد إلى فراعنة مصر[٣٠] .

وكانت موانئ الخليج العربي هي : المحطات التي ترسو فيها السفن، فضلاً عن أن البحارة كانوا يأخذون هناك قسطا من الراحة ؛ قبل مواصلة تنقلاتهم بين المنطقتين .وبالذات إذا ما علمنا أن السفن كانت تتحاشى الإبحار في عرض البحر، أي أنها كانت تلزم الإبحار بمحاذاة الشواطئ من سواحل بلاد العرب حتى الهند والعودة[٣١] . يصف بليني ساحل الخليج العربي المتاخم لأراضي الجزيرة العربية الشرقية . وهو الساحل الذي كانت تحاذيه الرحلات البحرية دائماً، ويذكر في ذلك جزيرة إيكاروس (فيلكا) ومدينة جرهاء ويؤكد أن منطقة الخليج تشتهر بلؤلؤها الفائق . ويقول إن سبب إطلاق لفظة سعيدة على قسم من أراضي العرب إنما مرجعه إلى اللؤلؤ الذي يأتي من بحر العرب (ذكرنا ذلك سابقاً عند الحديث عن الأسطورة السومرية)[٣٢] . وبعبارة أخرى فقد تمكن البحارة الدلمونيون في تلك الحقبة الزمنية (الألف الثالث قبل الميلاد) الخروج إلى ما وراء الخليج العربي، وأقاموا علاقات تجارية مع ملوها، الواقعة إلى الشمال الغربي من ساحل هندوستان . ومن هناك نقلوا الأخشاب والقطن والعقيق واللازورد ومختلف منتجات حضارة الهرابة[٣٣] .

وفي اعتقادنا أن سفن دلمون التجارية كانت قد تمكنت من عبور مضيق هرمز عند أضيق مكان فيه، وواصلت خطها الملاحي بالقرب من ساحل بلوجستان الجنوبي . على أن اللقى الأثرية للحضارة الهراباتية (Harappa) في البحرين وفي واحة البريمي، فضلاً عن معطيات أخرى كانت قد أكدت على التلاقي الحضاري بين الحضارتين الهندية وحضارة جنوب غربي آسيا . ومن ثم سعيهما إلى وضع التبادل التجاري والثقافي على أرضية ثابتة وأن يكون طويل الأمد . فإلى الغرب من مركز حضارة الهرابة، مازالت آثار المخافر الأمامية التي اشتهرت بها هذه الحضارة، والتي كانت عبارة عن مراس للسفن القادمة إلى هناك حتى اليوم واضحة على ساحل بلوجستـــان ومكرانة (عند مصب نهر دست)[٣٤] . لقد كان البحارة الدلمونيون ماهرين ومن الدرجة الأولى "فقد أظهرت النصوص المكتشفة في موقع أبلا (تل مرديخ قرب حلب في شمالي سورية) استعمال السكان فيها لوزن المانا (المن) الدلموني في معاملاتهم . وهو ما يدل على قوة العلاقة بين المنطقتين"[٣٥] .

وفيما يخص الساحل الشرقي للخليج فقد كتب كرستين نيبور في سنة ١٧٦١ ما يلي (بتصرف) : "إن العرب كانوا يسيطرون على جميع الإمارات المطلة على حوض الخليج العربي، ونحن لا نعلم بالتحديد متى نشأت تلك الإمارات خصوصاً، لكن سكانها كانوا ينحدرون من بر الجزيرة العربية . أي أنهم من أصول عربية، لذلك توجب أن ألحق مختصراً عنهم[٣٦] . هذا ولا نستطيع تحديد الوقت الذي أنشأ فيه العرب هذه الإمارات في هذه المنطقة[٣٧] .

ولم يكتفِ نيبور بذكر تلك المستوطنات (الإمارات) بل حاول أن يصف المساحة التي شغلتها القبائل العربية في الساحل الشرقي للخليج العربي . وفي ذلك كتب يقول : "وأكبر العشائر العربية هناك عشيرة (الهولة)، وتمتد الأراضي التي تملكها من بندر عباس إلى رأس بردستان . وتملك جميع الموانئ الواقعة في هذا القسم من الساحل . فضلاً عن ذلك توجد عشائر عربية أخرى، مثل عشيرة بني كعب العربية التي تقطن في أبي شهر . على أن عرب تلك المناطق (المستوطنات) لا يعيشون على الزراعة أو الرعي بل على التجارة[٣٨] . وأخيراً يذكر نيبور أن السكان الذين كانوا يعيشون في المنطقة الواقعة بين بوشهر وبردستان قد عملوا بالزراعة[٣٩] .

ومع نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد بدا وكأن الشواهد المادية لعلاقات بلاد الرافدين مع جنوب شرقي الجزيرة العربية وشمال غربي الهند، بدأت تختفي، إلا أن المصادر الكتابية المسمارية (الإسفينية) استمرت تشير إلى الإبحار، سواءً إلى مجان أو إلى ملوها ليس فقط خلال الألف الثاني ولكن حتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد . على أنه وفي إشارات عدة نلاحظ ليس فقط ذكراً للمناطق المشار إليها هنا (في جنوب شرق الجزيرة العربية وهندوستان) ولكنها قد أدخلت ضمنها إشارات لمصر وبلاد النوبة[٤٠] . وفي هذه الحقبة الزمنية (أي من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد) اتخذت مصر عدة خطوات لمعرفة طرق الملاحة البحرية حول الشواطئ الشمالية الشرقية لأفريقيا، انتهت بتأسيس خط ملاحي يمتد من مصر وعلى طول البحر

الأحمر . وفي تتبع منطقي للسياسات التي كان يتبعها الفراعنة في مصر، فقد أرسلت الملكة حتشبسوت، في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، أكبر بعثة تجارية بحرية وصلت، على ما يبدو إلى شمالي الصومال أي إلى بلاد بونت[٤١] .

ومن المحتمل أنه مع نهاية الألف الثاني قبل الميلاد كان القسم الشمالي من البحر المتوسط يعج بالسفن الفينيقية . وفي القرن العاشر قبل الميلاد - ربما — كان الفينيقيون قد وصلوا إلى بلاد أوفير، وهي المنطقة التي كانوا يجلبون منها سلعاً تجد إقبالاً شديداً وذات قيمة عالية في أسواق حوض البحر المتوسط (وربما ارتبطت هذه الإشارة بما جاء في التوراة، وهي بحاجة إلى تأكيد) . على الرغم من أننا لانعرف مكان أوفير بالضبط ؛ هل هي في جنوبي الجزيرة العربية أم في الصومال أم في غرب الهند أم في مكان آخر[٤٢] .

وخلال الألف الثاني قبل الميلاد أصيبت حركة التجارة العالمية بنوع من التدهور، المرتبط بالجزء الشرقي من منطقة الجزيرة العربية، بسبب موجة الجفاف التي عمت مناطق العالم القديم (وربما ارتبط الجفاف بالمنطقة كلها) . "وقد صاحب هذه التغيرات انهيار المراكز الحضارية في بلاد الرافدين" . على أن هذه الحقبة التاريخية قد شهدت ازدهار مراكز حضارية محلية "عرفت بحضارة دلمون (٢٤٠٠ — ٥٠٠ قبل الميلاد) . وقد ارتبطت موانئ المنطقة الشرقية الرئيسية بالحضارة الدلمونية ودخلت تحت تأثيرها الحضاري والتجاري"[٤٣] .

وقد شهدت منطقة الشرق الأدنى القديم (الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر) خلال الحقبة الزمنية الممتدة من منتصف الألف الثاني وحتى بداية الألف الأول قبل الميلاد تغيرات عديدة، تمثلت بظهور قوى حضارية جديدة، كان لها تأثيراتها على كل المنطقة . فمن ناحية ظهرت بعض المراكز الحضارية في جنوبي الجزيرة العربية وشماليها الغربي وتطورت، ومن ناحية أخرى فقد تسيدت الإمبراطورية المصرية، ووصلت إلى أقصى اتساع جغرافي لها ؛ فوصلت جنوباً حتى منطقة الشلال الرابع وشمالاً شملت المناطق التي تسيطر عليها بلاد الشام كاملة وجزءً كبيراً من أراضي الإمبراطورية الحورية — الميتانية، شمالي بلاد الرافدين وجنوبي الأناضول[٤٤] .

ومما يرتبط بهذه الحقبة الزمنية — أخيراً — معرفة سكان الجزيرة العربية والخليج العربي، طرق استئناس الجمل، الذي يقول بعض الباحثين أن ذلك حدث في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد[٤٥]، ويقول آخرون أن ذلك قد تم عند ملتقى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد[٤٦] . ونحن نتفق مع رأي بعثة بنسلفانيا الأمريكية التي نقبت عن الآثار في الجوبة في اليمن خلال الأعوام ١٩٨٣ — ١٩٨٥م[٤٧] . وبالمناسبة فقد لعب الجمل دوراً كبيراً في ازدهار طرق التجارة البرية خلال حقبة زمنية امتدت لحوالي ألف عام تقريباً (على طول الألف الأول قبل الميلاد)، وأظهر قدرة كبيرة على تحمل العطش ومشاق السفر لآلاف الكيلومترات، وبمساعدة الجمل شقت الصحراء العربية جيئة وذهاباً في خط عرف باسم "طريق البخور"[٤٨] .

عند ملتقى الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، كادت المعلومات عن الملاحة البحرية أن تختفي نظراً للتطورات التي شهدتها مناطق العالم القديم، والمتمثلة بانهيار النشاط التجاري الفينيقي ونزوح قسم كبير منهم إلى شمالي أفريقيا، وتأسيس إمبراطورية تجارية هناك عرفت باسم قرطاجة، ومن ثم بسبب السيطرة العسكرية الآشورية على منطقة الهلال الخصيب كله . تلا ذلك حدوث صراعات عسكرية نشطة في بلاد الرافدين والهلال الخصيب بين قوى مختلفة . ومن بعد ملوك آشور، سيطرت على المنطقة بكاملها، عدة قوى وفي أوقات مختلفة، ليس هنا مجالها .

تطور دراسة خطوط الملاحة البحرية حول الجزيرة العربية خلال الألف الأول ق. م ازدهار التجارة الدولية

ذكرت بعض الأدبيات الغربية أن في الشرق القديم من كان يطمح إلى أن يصنع دولة ذات قوة بحرية، وأن يجعل شواطئها مساهماً نشطاً في التجارة الدولية المطردة بين الهند وعالم البحر المتوسط، إلا أن الصحراء قد لعبت كما يبدو دوراً سلبياً في طريق تنفيذ ذلك الطموح(٤٩) .

لقد تم توحيد وحدات الوزن والقياس وسك عملات ذهبية وفضية لكل الأقاليم[٥٠] . ونتيجة لذلك تطورت التجارة بشكل ملحوظ، وفتحت آفاق جديدة للتطور الاقتصادي[٥١] .

"لقد تجاوز حجم التجارة في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد أي مقدار عرفته فيما سبق منطقة الشرق القديم . غير أن أهم ما تميزت به التجارة هو أنها كانت ترتكز بالأساس على المنتجات العادية المستخدمة في الحياة اليومية، وعلى الأدوات المنزلية والملبوسات الرخيصة وذلك عكس الفترات السابقة لها التي ركزت على السلع الكمالية . ومن هنا فقد اتجه تطور الصناعة لخدمة كل طبقات المجتمع ."[٥٢] .

وكانت التجارة مع أقاليم الهند والجزيرة العربية واليونان أوسع بكثير من ذي قبل[٥٣] .

وفي المقابل فقد كان لدخول الإسكندر الأكبر إلى الشرق، وسيطرته على مناطق حوض البحر المتوسط والشرق الأدنى القديم أن جلب معه الفن والفكر والتقنيات اليونانية الأرفع التي لا مثيل لها إلى قلب الشرق الأوسط فتم بناء مئات المدن إما على يده أو على أيدي خلفائه، من الإسكندرية في مصر إلى الإسكندرية — أريون في أفغانستان والتي تعرف اليوم باسم "هراء"، ومن أنطاكية في سوريا إلى أنطاكيا "الجديدة" على الخليج العربي . "على أن أنطاكيا الأخيرة هذه ظلت طيلة تاريخها اللاحق نقطة ارتكاز لتجارة السلوقيين ومصالحهم في منطقة الخليج العربي"[٥٤] .

وفي كل الأحوال فقد شهد المجال الاقتصادي خلال العصر الهيلينستي تطورين مهمين، **الأول** : تطور موارد الشرقين، الأدنى والأوسط، على نحو أكثر رشادة وكثافة من أي وقت مضى، **والثاني** : "أن حجم التجارة الدولية ومداها بين مختلف أجزاء العالم القديم قد اتسعا على نحو كبير"[٥٥] . وقد كان اقتصاد مصر أكثر تطوراً بفضل الإدارة الفعالة التي خططت وأدارت ذلك الاقتصاد . وبدا أن الأمر نفسه – وإن بدرجة أقل – في منطقة الهلال الخصيب (سوريا وبلاد الرافدين والأناضول) .

"وكانت الموانئ الممتازة سبباً في تسهيل حركة التجارة الدولية وانسيابها على خطوط برية وبحرية مأمونة . وكان أكثرها أهمية ميناء الإسكندرية المتميز بمنارته الشهيرة"[٥٦] .

لذلك فقد شهدت الحقبة الممتدة من نهاية القرن السابع وحتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد تطوراً كبيراً، في دراسة طرق الملاحة البحرية واستيعابها في المحيط الهندي وبحر الخليج العربي والبحرين العربي والأحمر . الأمر الذي عكس نفسه على سرعة تطور حركة التجارة الدولية بين مناطق شرقي آسيا وشمال شرقي أفريقيا من جهة وبين جانبي حوض البحر المتوسط الشرقي والغربي من الجهة الأخرى، أي بين شرقي آسيا ومصر وشمال شرقي أفريقيا (منطقة ما يعرف اليوم بالقرن الأفريقي) والجزيرة العربية من جهة، ومناطق الشرق الأدنى القديم وحوض البحر المتوسط من الجهة الأخرى . وقد شهدت تلك الحقبة الزمنية إقبالاً شديداً على السلع المنتجة في شبه

القارة الهندية ؛ (كالتوابل والعقيق والقطن) والسلع التي تنتج في بلاد العرب الجنوبية ؛ (البخور والورس والصبر وغيرها) . فضلاً عن منتجات شمال شرق أفريقيا .

ولذلك عملت الدول الكبرى في تلك الفترة على الاستيلاء على مناطق إنتاج تلك السلع وطرق تسويقها . وهنا يجب التنويه إلى أن المصادر المستندية قليلة جداً وإن لم تكن معدومة (في الأقل خلال تلك الفترة التي نحن بصدد دراستها) في إعطائنا معلومات عن التجارة البحرية . ومن غير المعقول ألا يكون لسكان السواحل في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها سفن تجارية في تلك الحقبة الزمنية التي نتحدث عنها هنا . فلقد تكاملت المناطق الحضارية في الشرق القديم بعضها مع بعض (حضارة وادي النيل وحضارة وادي الرافدين وبلاد الشام وأخيراً حضارة الجزيرة العربية) . ومن غير المعقول أنها استخدمت الطرق البرية في علاقاتها المتبادلة .

ومنذ قديم الزمن كانت تجارة السوريين واللبنانيين مع مصر وبلاد الرافدين واسعة . إذ صدروا الأخشاب والمنسوجات والزجاج وغير ذلك من المصنوعات، وحصلوا على حق إقامة أحياء خاصة بهم في مدن مصرية مختلفة، مع العلم أن مادة القطن كانت تستورد من الهند، إن لم تكن كلها فعلى الأقل أغلبها . وفيما بعد، وسعوا نشاطهم بشدة غرباً منشئين مستعمرات في شمالي أفريقيا وأسبانيا ومن ثم أبحروا إلى بريطانيا[٥٧] .

لقد كان هذا التركيز على الصناعة والتجارة أمراً فريداً في نوعه في العصور القديمة، وبذلك أكد غوردون تشايلد "أن نسبة الذين عملوا بالصناعة والتجارة من الفينيقيين كانت أكبر بكثير من الذين عملوا بها في مصر وبابل وآشور وبلاد الرافدين، حيث كانت الزراعة تسيطر على معظم النشاط الاقتصادي"[٥٨] . لذلك اتسع نطاق التبادل التجاري الدولي في الاتجاهات المختلفة :

أولاً : في البحر المتوسط (مع اليونان وقرطاجة وصقلية وشبه جزيرة إيطاليا) .

ثانياً : مع الهند وجزيرة العرب وشرقي أفريقيا (للعلم كان الأوسانيون ومن بعدهم القتبانيون يسيطرون على مناطق تمتد من عصب وحتى جزيرة مدغشقر)، عن طريق مجموعة من الطرق البحرية وطرق القوافل .

ولهذا الغرض (أي لغرض التجارة) استخدم طريقان رئيسيان، هما : طريق البحر الأحمر حتى الموانئ السورية الغربية، وطريق الخليج العربي الذي كان ينتهي - أيضاً - عند الموانئ السورية الشمالية والشمالية الغربية . وكان التنافس بين البطالمة وبين السلوقيين على تلك الطرق شديداً . وبذلك تطورت دراسة طرق الملاحة البحرية، منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد، في عهد الفرعون (نيخو) وكذلك فيما بعد . وازدادت وتيرة تلك الدراسة منذ أن حط الإسكندر المقدوني رحاله في بابل مع نهاية ثلاثينات القرن الرابع قبل الميلاد، ومن بعده البطالمة في مصر والسلوقيون في سوريا .

دراسة طرق الملاحة البحرية
بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد

تورد رواية كتبها أحد المستشرقين الغربيين أنه وجدت مملكة على رأس الجزيرة العربية الشمالي الشرقي وقد سماها "مملكة أرض البحر Sea Land" القديمة . وكانت تسيطر على منطقة تمتد حدودها بالقرب من مصب الفرات إلى قرب دلمون . قامت هذه المملكة في الألف الأول قبل الميلاد وكانت تضم كلدانيين وعرباً . وفي بداية القرن السابع قبل الميلاد حاول ملك هذه الأرض أن يتمرد على سيده الملك الآشوري سنحريب (٧٠٥ – ٦٨١ق.م)، ففشل في ذلك التمرد وفر هارباً . إذ أحضر سنحريب فينيقيين إلى نينوى وبنى هناك سفناً له، قادها فيما بعد ملاحون من صور وصيدا وقبرص . فأرسل الملك الآشوري جيشاً على تلك السفن إلى أرض البحر، لملاقاة جنود ملك تلك الأرض، وعندما لحقت بهم هزيمة فر ذلك الملك هارباً . الأمر الذي يعني أنه كان يوجد حد أدنى من النشاط البحري للآشوريين في ذلك الوقت(٥٩) .

وأورد مستشرق آخر قصة تلك الحملة التي أرسلها سنحريب في أحد النقوش الآشورية، بالشكل الآتي : إن تلك الحملة تدل على أن منطقة الخليج العربي كانت تنقصها الخبرات الخاصة بصناعة السفن أو أن سنحريب ربما توقع مقاومة بحرية قوية فأراد أن يظهر تفوقه

عن طريق بناء أسطول بحري كبير، مع العلم أن ذلك الأسطول بني بخبرات فينيقية[٦٠] . وبعبارة أخرى فإن هاتين الروايتين تلقيان الضوء على أن النشاط الملاحي في الساحل الشرقي للخليج خلال تلك الفترة – ربما – كان ضعيفاً إن لم يكن معدوماً بالمرة، فضلاً عن ذلك فإنه لم يوجد نشاط ملاحي في عصر الدولة البابلية الحديثة[٦١] .

في بداية القرن السادس قبل الميلاد وبمرسوم من فرعون مصر نيخو الثاني (٦١٠ – ٥٩٥ق.م) فتح من جديد الطريق البحري بين مصر ومناطق حوض المحيط الهندي وذلك عبر البحر الأحمر، وكان الفينيقيون هم الذين كلفوا بتلك المهمة . إلا أنهم لزموا ساحل أفريقيا الشرقي فداروا حول أفريقيا في مدة استمرت ثلاثة أعوام . يشير هيرودوت إلى أن تلك المهمة تمت في عام ٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً[٦٢] . وفي عهده، أيضاً، تمت محاولة شق قناة تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر عبر النيل، وكان طول تلك القناة حوالي ٨٤ كم تقريباً . وتشير بعض الدراسات أنه توفي بسبب ذلك العمل حوالي ١٢٠,٠٠٠ فرد من الذين عملوا على شق تلك القناة[٦٣] . وبالرغم من أن بعض المستشارين عارضوا خطة الفرعون نيخو الثاني في شق تلك القناة – حسبما يرى مؤلفو كتاب "لمحات من تاريخ أفريقيا"، إلا أنه تمت بنجاح عملية الشق وإن في غير المكان الذي كان قد حدد من قبل[٦٤] . لكن تلك القناة تركت فيما بعد دون صيانة أو تنظيف فملأتها الرياح بالرمال، وطمرت نهائياً، ذلك لأنه جرى فيما بعد إعادة شق قناة أخرى، عرفت باسم قناة سنوسرت .

تلك هي المعلومات المتوفرة عن النشاط العربي في البحار المحيطة بالجزيرة العربية وبقية مناطق الشرق القديم، حتى القرن الرابع قبل الميلاد .

دراسة خطوط الملاحة البحرية تطور التجارة الدولية في الخليج العربي خلال عهد الإسكندر المقدوني

عندما قرر الإسكندر المقدوني غزو الشرق كانت قد تكونت لديه فكرة متكاملة عن ثروة الشرق الأدنى وشرقي آسيا، ومن ضمن تلك المعلومات التي أبلغها إليه مستشاروه حول ثروات العرب، ومنهم العرب الجنوبيون من منتجات وغنى أسطوري . فقد كان أولئك القوم (العرب) لا ينتجون البخور بأنواعه والأفاويه ولكنهم يتاجرون بمنتجات شمال شرقي أفريقيا وشبه القارة الهندية من التوابل والقطن والعقيق واللازورد وغيره[٦٥] . ولقد بدا أن حياة الإسكندر المقدوني ونشاطه كانت فاصلة بين عصرين : العصر الكلاسيكي وقد مثلته بلاد الإغريق (أثينا وإسبرطة)، وعصر الإسكندر وهو الذي خلع عليه الباحثون تسمية العصر الهلينيستي[٦٦] .

بعد ما فرغ الإسكندر المقدوني من سيطرته على معظم مناطق الشرق الأدنى ووصوله إلى نهر السند، عاد واستقر في بابل التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته . هناك أعد الإسكندر خطة للسيطرة على طرق

الملاحة البحرية حول جزيرة العرب وشمالي المحيط الهندي، لأنه كان يرغب في أن تكون الإسكندرية التي أسسها سنة ٣٣٢ قبل الميلاد، ميناءً تلتقي فيه تجارة الشرق بتجارة الغرب . وفي بابل عمل الإسكندر على استقدام الفينيقيين للملاحة في بحر الخليج والاستيطان على شواطئه[٦٧] . كما اشتغل خلال السنة الأخيرة من عمره في بناء السفن وصناعتها سفينة سفينة، وقد استفاد الإسكندر من بعض أشجار السرو التي كانت تنمو بالقرب من بابل وجلب ما لم يتوافر من الخشب من مناطق أخرى[٦٨] . وعمل الإسكندر على توظيف مجرى نهر الفرات لتحسين الملاحة فيه، فضلاً عن تحسين وضع ميناء بابل ذاتها، لتكون قادرة على استيعاب رسو السفن التي ستصل إليها[٦٩] .

وكان الإسكندر قبل ذلك قد كلف أحد قادته للقيام برحلة بحرية من الهند حتى الخليج العربي . وكانت مهمة البعثة استكشافية، فاتجهت جنوباً نحو مياه المحيط ومن هناك نحو بحر الخليج، وقد اختلفت الروايات حول عدد سفن تلك البعثة . إذ أن أريان ؛ مؤلف كتاب الهند والمكرس في الأساس لرحلة نيارخوس، لا يذكر كم كان عدد السفن، على الرغم من أنه يقول بالحرف : "إن هدف القصة في كتابة هذا هو تلخيص الرحلة التي نفذها نيارخوس مع الأسطول، من نهر السند عبر البحر الكبير وحتى الخليج العربي"، الأمر الذي يوحي من خلال كلمة "الأسطول" أن عدد السفن كان كبيراً . وهو ما يتفق مع رأي الدكتور جواد علي . لكننا نلاحظ أن أريان يسهب في شرح الحوار الذي دار بين الإسكندر وبين نيارخوس حول من هو الشخص الذي يجب أن يكلف بالقيام بتلك المهمة، إلى أن استقر الرأي في الأخير

على أن يتولى نيارخوس قيادة هذه البعثة البحرية[٧٠] . بينما يرى حوراني استناداً إلى معلومات استقاها من أريستوبولوس، أن عدد السفن كان ثلاثاً فقط[٧١] . لكن الدكتور جواد علي كتب يقول : إن عدد السفن التي تكونت منها تلك البعثة شكّل أسطولاً ضخماً . ويشير إلى أنه ربما كان أكبر أسطول عرفه بحر الخليج والبحر العربي حتى ذلك العهد . وقد استعان الإسكندر بخبرة الفينيقيين وعلمهم بالبحر، وهم الذين نقلهم إلى هناك للإشراف على بناء سفن الأسطول[٧٢] . وتذهب بعض الأدبيات إلى أن عدد السفن بلغ حينها ٤٧ سفينة، وأن الأسطول الذي قاده نيارخوس قد انطلق "من مصب نهر السند حتى منطقة الخليج العربي"[٧٣] . ولا نعرف من أين أتت بهذه المعلومة ؟ وفي كل الأحوال فإننا نتفق مع ما كتبه أريان وكذلك جواد علي على أن عدد السفن كان كبيراً .

على كل حال فقد ترأس تلك البعثة القائد البحري نيارخوس (**Nearchus**)، ورافقه فيها زميله المؤرخ أنيسكريت (**Onisicrit**)، فضلاً عن ملاحين من الفينيقيين ومن غيرهم، الذين خبروا البحر جيداً . ويروي أريان، أنه قبل انطلاق البعثة، قدم نيارخوس ضحية لكبير آلهة الإغريق ؛ "زيوس — المنقذ"، وكذلك أقام مع زملائه في الرحلة حفل وداع[٧٤]، وهو ما يعني أنهم كانوا خائفين من البحر . ولكن نيارخوس وزملاءه وافقوا على تنفيذ ما كلفهم به قائدهم الإسكندر والتضحية في سبيل الوطن والإمبراطور . انطلقت البعثة من مكان ما على نهر السند (ربما عند مصب النهر) وباتجاه مجراه جنوباً حتى مياه المحيط لتنجز مهمة عبور مضيق هرمز (كان يسمى حينها رأس

مسندم)، والدوران حول سواحل الجزيرة العربية الشرقية بغرض استكشافها . ويشير أريان إلى أن أفراد هذه البعثة لاحظوا لساناً من السلسلة الجبلية المتدة حتى البحر، وهي تتصل بالجزيرة العربية، وتسمى "ميكيت –Maketa"[٧٥] .

كما أرسل الإسكندر من قبل بعثة بحرية من ميناء جرينبول في مصر إلى البحر الأحمر للدوران حول الجزيرة العربية من الغرب والوصول إلى باب المندب[٧٦] . كما أرسل كذلك من أسفل الفرات عدة بعثات بحرية من المفروض أن تصل إلى مصر، ولكن وصلت سفن إحدى تلك البعثات حتى البحرين فقط (دلمون)حيث شاهد ملاحوها مصائد اللؤلؤ[٧٧] ، أي أنها لم تحقق أهدافها في الدوران حول السواحل العربية الجنوبية والشرقية كاملة . إلا أن معد موسوعة الخليج العربي يقول إن القائد نيارخوس قد دار حول مضيق هرمز وفي طريقه إلى رأس الخليج الشمالي مرت البعثة البحرية على "ساحل كرمان عند كتايا (ربما قيس) التي قال إنها جزيرة صحراوية عند الإله هرميس والإلهة أفروديت وزيارتهم لجزيرة صغيرة قال أنها مشهورة بصيد اللؤلؤ"[٧٨] . على الرغم من أن مرافقي نيارخوس نفسه أشاروا إلى أن معرفة اللؤلؤ تمت من قِبَل أعضاء بعثة أخرى كانت قد انطلقت من أسفل الفرات . بعبارة أخرى لم تصل بعثة نيارخوس إلى الطرف الشمالي لبحر الخليج العربي[٧٩] . إلا أن وفاة الإسكندر وهو في سن الشباب، قد وضع حداً لمشروعه الطموح في السيطرة ليس على أراضي الشرق القديم فقط، ولكن

على طرق الملاحة البحرية في الشرق كله . وبعبارة أخرى حاول اليونانيون وغيرهم انتزاع تجارة المحيط الهندي من أيدي العرب ولكن محاولاتهم تلك باءت بالفشل . على أن العالم القديم كان قد حصل بفضل تلك البعثات على معلومات موثوق بها عن الإبحار حول شواطئ الجزيرة العربية، وبالذات من نهر السند وحتى مضيق هرمز(٨٠) . وكانت الخطوات التالية نحو تحقيق ذلك الهدف — من نصيب الأسرة البطلمية التي حكمت مصر بعد وفاة الإسكندر المقدوني(٨١) . وهو ما قامت به تلك الأسرة من ناحية الجناح الغربي للجزيرة العربية، أما من الناحية الشرقية للجزيرة العربية فقد برزت بعض مدن القوافل على طول الساحل الشرقي لها . وعند ملتقى الألفين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي انتقل ذلك الدور إلى أعالي الفرات (كما سنرى لاحقاً) .

منطقة الخليج العربي
في عهد خلفاء الإسكندر المقدوني

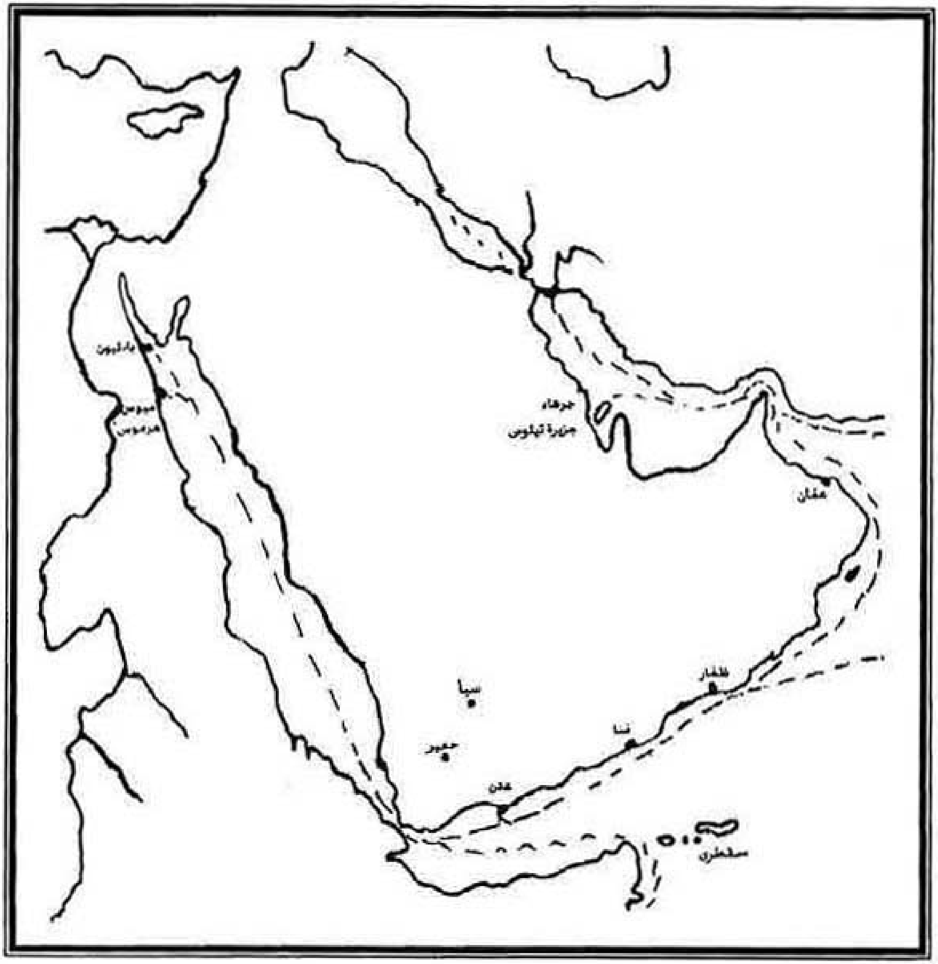
سبقت الإشارة إلى أن الإسكندر المقدوني قد حاول توحيد "شواطئ البحر المتوسط وسواحل خليجي المحيط الهندي"، إلا أن وفاته ساعدت وإن بصورة غير مباشرة على فصل سواحل خليجي المحيط الهندي (البحر الأريتري وبحر الخليج العربي)، عندما أصبحت بلاد الشام تحت سيطرة السلوقيين ومصر تحت سيطرة البطالمة . وكان

لزيادة الطلب على سلعة البخور والأفاويه في مناطق حوض البحر المتوسط وبلاد ما بين النهرين أن استدعى زيادة المحصول السنوي وكذلك زيادة عدد مرات جمعه[٨٢] . في هذه الأثناء اشتد التنافس بين سبأ وقتبان على السيطرة ليس على مناطق إنتاج البخور فقط، بل وعلى طرق تسويقه . ولذلك حاولت مملكة حضرموت، التي كانت تصرف منتجاتها عبر قتبان ومملكة سبأ أن تجد لها منفذاً نحو الساحل الشرقي للجزيرة العربية لتصريف منتجاتها بعيداً عن وصاية السبأيين . وبحسب أندروسثين (**АндросФену**) أحد مرافقي نيارخوس القائد المقدوني، فقد كان الجرهائيون هم الذين يتاجرون بالبخور الحضرمي . وكان يتم نقله براً من منطقة إنتاجه (في ظفار ساكلن)، الواقعة شرق المملكة الحضرمية .

كانت جرهاء في الأصل مدينة عربية – كلدانية، ثم انضم إليها مهاجرون آخرون من مناطق مختلفة من الخليج والبر الداخلي للجزيرة العربية . وهي تقع على ساحل الأحساء بجانب ميناء العقير الحالي . يشير بعض الباحثين أن الجرهائيين كانوا خلفاء الدلمونيين[٨٣] . ففي منتصف الألف الأول قبل الميلاد ورث الدلمونيين أقوام جدد عرفوا بالجرهيين، وهم أقوام عرب كلدانيون أقاموا مع بعض إمارة، عرفت في الأدبيات التاريخية بمملكة جرهاء وكانت جرهاء المدينة عاصمة دولتهم . ومن ثم "حكم الجرهائيون كامل المنطقة الشرقية منذ عام ٥٠٠ – ٢٥٠ قبل الميلاد"[٨٤] . على الرغم من أن جواد علي كان قد

أشار إلى أنه عثر على نص أرخ في السنة السابعة من سني فيلبس (فيلفوس) وتقابل هذه سنة ٣١٧ قبل الميلاد . وهو نص بابلي ورد فيه اسم أرض دعيت (برديسو)، وتقابل هذه الكلمة كلمة (فردوس) بالعربية وتقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب، بين مجان وبيت نبسانو التي هي جزيرة دلمون . وقد حملت هذه التسمية بعض العلماء على التفكير في أن هذه المنطقة — ربما — تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج العربي[٨٥] . إن ما جاء في هذه الفقرة يتفق إلى حد كبير مع ما جاء في الأسطورة السومرية، التي ذكرت في مكان سابق هنا، لكن أن تفهم كون تاريخ ذلك النص يطابق ٣١٧ قبل الميلاد، ففيه نظر، ويحتاج إلى دراسة وتحرٍ أكثر .

وعلى كل حال فقد كانت جرهاء ملتقى القوافل التجارية الدولية القادمة من الهند وأفريقيا وباتر (حيدر أباد) وبلاد العرب الجنوبية وهو الطريق الذي يربطها شمالاً بالفرات وسلوقية على دجلة وتاليا بسوريا (خريطة رقم ٢) . ويبدو أن دور جرهاء عند منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بدأ يتلاشى لتحل محلها مدن قوافل أخرى مثل : ثاج ومليحة، وهي مدن ظهرت على الطريق الذي كان "يربط العراق بجنوبي جزيرة العرب" . وفي مليحة تم العثور على كتابات قبورية بالخط العربي الجنوبي (المسند) . وبعبارة أخرى لم يواصل خلفاء الإسكندر المقدوني، من الأسرة السلوقية، نشاطاً ملحوظاً في منطقة الخليج العربي . إلا أن القرن الثالث قبل الميلاد كان بالنسبة



خريطة رقم (٢)

شمال غرب المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج العربي
في النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد

أخذت معلومات الخريطة من كتاب جورج حوراني (العرب والملاحة في المحيط الهندي)

للجرهائيين أكثر نشاطاً في هذه المنطقة . إذ تولوا مسئولية إيصال البخور عبر بحر الخليج إلى جنوب بلاد ما بين النهرين وربما بعضاً منه عبر البر كذلك .

شهد الساحل الشرقي للجزيرة العربية خلال القرن الثالث قبل الميلاد حركة تجارية نشطة برية وبحرية . فقد ظهرت مدن وبنيت موانئ، على طول الطريق التجاري الدولي (البري والبحري) . فقامت "مدينة هجر والمشقر ومدينة جواثي، العقير، تاروت الحظ وثاج (وهي التي ذكرت في نقش النمارة لامرئ القيس في بداية القرن الرابع الميلادي)، ومدن أخرى كثيرة كانت على علاقة بالتجارة العربية الجنوبية وآشـور ومصر وبلاد اليونان . ولأن الأسرة السلوقية الحاكمة في سوريا لم تهتم بالتجارة البحرية من خلال الخط البحري الذي وضع أسس معالمه نيارخوس، بل كانت تجارتها مع الهند — على ما يبدو — تتم عن طريق البر . وهنا يشير جورج حوراني فيما يخص تجارة الفيلة في حوض البحر المتوسط ؛ "إلى أن الفيلة على الأقل كان يؤتى بها عبر البر"، على أنه لا يستبعد مرور بعض التجـارة عن طريق البحر . وعندما أنشئت مدن القوافل في منطقة الهلال الخصيب، مثل تدمر والحضر ومدن أخرى على طريق القوافل مثل : ثاج ومليحة وغيرهما، وبتشجيع من روما، فيبدو أن تلك المدن قد تمكنت من أن تخطف الدور التجاري الجرهائي . وبذلك توارت هذه المدينة، أو في

الأقل لم نلمس دورها التجاري من خلال الأدبيات التاريخية اللاحقة بصورة واضحة .

منطقة شمال غربي المحيط الهندي (البحر العربي وخليج عدن) بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد

سبق الحديث عن أن الإسكندر المقدوني كان قد أرسل من مصر بعثة بحرية للطواف حول الجزيرة العربية، ويبدو أنها وصلت إلى مضيق باب المندب . لكن وفاته أرجأت خطته في أن يكون للإسكندرية دور هام في الاقتصاد العالمي بين مناطق حوض المحيط الهندي وجنوب غربي آسيا ومناطق حوض البحر المتوسط . وخلال القرن الثالث قبل الميلاد واصل البطالمة ما كان قد بدأه الإسكندر، فتواصلت الرحلات البحرية، ابتداءً من رحلة أريستون (Ariston) الذي تتبع بدقة حركة الملاحة في البحر الأحمر حتى عدن . وفي نهاية القرن الثاني قبل الميلاد (في حوالي ١١٦ – ١١٥ق.م) تمكن أحد البحارة الإغريق، وكان يدعى إيودوكس الكيزيكي من الحصول على معلومات عن نظام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، من أحد الهنود الذين تحطمت سفينتهم في مكان ما من خليج عدن (أي الرياح التجارية)، التي تهب في المحيط الهندي . وقام برحلة إلى الهند والعودة في عرض البحر، أي أنه لم

يلزم السواحل . وبعد عودته مباشرة، كلف القبطان هيبالوس باختيار تلك المعلومات التي أوصلها إيودوكس لبطليموس مصر ومن سبقوه، والإبحار في وسط المحيط والعودة . وبالفعل تم له ما أراد، وتمكن من تلخيص أكثر الخطوط الملاحية اقتصاداً في وقته، إلى درجة أن الرياح الموسمية التي كانت تهب على شمال غربي المحيط الهندي سميت فيما بعد باسم هيبالوس ذاته .

ومع بداية العصر الميلادي أصبحت معظم قوافل التجارة الدولية تمر عبر البحر، وبذلك وجهت ضربة اقتصادية قاسية لاقتصاد دولتي معين وسبأ العربيتين الجنوبيتين اللتين كانتا تعتمدان على الدخل المالي من ضرائب مرور التجارة الدولية على أراضيهما .

الخلاصة

من خلال تتبع تطور خطوط الملاحة البحرية وارتباطها بالتجارة الدولية يمكن أن نستنتج ما يلي :

أولاً : كان ركوب البحر إحدى المهن التي عمل بها معظم العرب الذين سكنوا السواحل البحرية، وكان أولئك البحارة يجلبون من الهند كل ما تحتاجه ليس فقط بلاد العرب في جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها، ولكن ما تحتاجه تلك المناطق العربية البعيدة مثل بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر، فضلاً عما تحتاجه مناطق حوض البحر

المتوسط الغربية . وساعدهم في ذلك موقع بلادهم على الطريق التجاري بين شرقي آسيا وشمال شرقي أفريقيا من جهة وبين مناطق الهلال الخصيب (بلاد الرافدين وسوريا) ومصر من الجهة الأخرى .

ثانياً : عرف العرب في هذه المنطقة من العالم صناعة السفن التجارية والقوارب البحرية منذ القدم، فقد بدأوا حياتهم بالمطيل والأطواف والأرماث وزوارق من الجلد، لكنهم انتقلوا فيما بعد إلى بناء القوارب من الخشب والجرع ومن النخيل أيضاً . وكانوا يطلون القوارب والسفن بالقار لمنع تسرب المياه إلى داخل السفينة أو القارب . بل وأطلقوا تسميات مختلفة على تلك السفن والقوارب، مثل البطيل والـ "هوايرية" والبقرة . وكان يتم جلب الأخشاب إما من الأحراج التي كانت تنمو في جنوبي بلاد العرب أو من مناطق الهند . أما الجرع فقد كان ينمو بكميات وفيرة حول السواحل العربية . في البداية استخدموا الحبال المصنعة من لوف النخيل في شد جذوع الرمث بعضها إلى بعض وكذلك، في خياطة جوانب القارب والأضلاع التي تسند قاع القارب، وقبل ظهور المسامير الحديدية التي قامت مقام الحبال في شد ألواح الخشب بعضه ببعض . وكان يصل طول القارب في منطقة الخليج العربي إلى حوالي عشرة أقدام أو أكثر، ويركب عليها شخصان في الغالب، وكانت تصنع من سعف النخيل .

ثالثاً : مرت حركة اكتشاف الخطوط الملاحية البحرية بعدة مراحل بدءاً من :

١ — الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، حيث كانت سفن دول المدن السومرية أور ولجش وغيرهما وفيما بعد سفن أكاد، فضلاً عن سفن دلمون، تجوب مياه الخليج العربي جيئةً وذهاباً لنقل السلع المختلفة . وفي الجناح الغربي للجزيرة العربية كانت البعثات البحرية لفراعنة الدولة الوسطى مستمرة للبحث في معرفة أفضل الخطوط الملاحية في البحر الإريتري، ومنها البعثة المشهورة التي أرسلتها الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت .

٢ — وشهد الألف الأول قبل الميلاد ، تطورات سريعة في حركة اكتشاف خطوط الملاحة البحرية، في شمال المحيط الهندي والخليج العربي وخليج عدن، فضلاً عن البحر الأحمر . وكان ذلك مرتبطاً بازدياد حركة التجارة الدولية وزيادة التبادل التجاري بين مناطق شبه القارة الهندية وشمال شرقي أفريقيا والجزيرة العربية من جهة وبين مناطق الهلال الخصيب (بلاد الرافدين وسوريا) ومصر ومناطق حوض البحر المتوسط من الجهة الأخرى

٣ — منذ القرن الثامن قبل الميلاد سيطر ملوك آشور على حوض الفرات وشمال بحر الخليج العربي ومن أولئك الملوك سنحريب . في الوقت الذي استمرت فيه الإمارات العربية في الخليج تسيطر على بقية أجزاء بحر الخليج وتقوم بنشاط

تجاري بري وبحري مع مختلف مناطق العالم القديم التي استطاعت أن تصل إليها .

٤ – شكلت سيطرة الإسكندر المقدوني على بلدان الشرق القديم، في النصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد، بداية عصر جديد في حركة الملاحة البحرية والتجارة الدولية أيضاً . أي أنه ابتداءً من بعثة نيارخوس التي انطلقت من مصب نهر السند مروراً برحلات أريستون واكتشافات إيودوكس الكيزيكي لنظام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية (مابين ٣٢٣ وحتى ١١٥ قبل الميلاد)، حصل العالم على معلومات مؤكدة حول خطوط الملاحة البحرية التي أكدها القبطان هيبالوس في رحلته التي انطلق فيها من مصر وحتى الهند والعودة، شاقاً طريقه في عرض البحر وليس قرب السواحل . وبذلك أصبحت التجارة الدولية تنقل عبر البحار في سفن تشق عباب البحر من منتصف القرن الأول قبل الميلاد . وباختصار فقد كان للجزيرة العربية في ذلك الوقت أهمية كبيرة، ليس فقط في تأمين طرق التجارة الدولية بين مختلف مناطق العالم القديم، بل وكانت تنتج أهم السلع المرغوبة في ذلك الوقت (البخور واللؤلؤ والنحاس والمعادن المختلفة) .

د. مهيوب غالب أحمد كليب

قسم التاريخ – كلية الآداب جامعة ذمار – اليمن

الهوامش والتعليقات

١ – حسن صالح شهاب ، أضواء على تاريخ اليمن البحري، بيروت ١٩٧٧، ٢٥٨ ؛كذلك : مكفريل س.، ١٩٨٥، ١١٨-١٢٢ ، في كتاب : البحر والتاريخ – سلسلة عالم المعرفة – الصادر في الكويت أبريل ٢٠٠٥ .

٢ – أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروفة بـ : رحلة بن جبير، ط ٢، مكتبة دار الهلال/ بيروت ١٩٨٦، ص. ٤١-٤٢ .

٣ – نزيه مؤيد العظم، رحلة في بلاد العرب السعيدة، ط ٢/ج ١-٢، مؤسسة فادي برس – لندن ١٩٨٥، ص. ٢٠ .

٤ – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ٢٥٨ .

٥ – Dickson, H.R.P., The Arab of Desert, p. 480.

٦ – مجلة الكويت، العدد ٢٨٤ الصادر في يونيو ٢٠٠٧ .

٧ – محمود شاكر، موسوعة تاريخ الخليج العربي، ج ١، الأردن – عمان ٢٠٠٣، ٣١ .

٨ – نفسه .

٩ – National Geographic Magazine, April 1965, Washington.

١٠ – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، منشورات الشريف الرضي، بغداد بدون تاريخ، ص. ٢٥٦ .

١١ – Dickson, op. cit, p. 479.

١٢ – القرآن الكريم، السور والآيات ؛ طه، ٣٩، ٧٨، ٩٢ ؛ القصص، ٧ ؛ الأعراف، ١٣٥ ؛ البقرة، ١٦٤ ؛ الكهف، ٧٢، ٨٠ ؛ العنكبوت، ١٥ .

١٣ – محمد بن محمد عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس ج ١-٢، ٥، ٧، ١٠، تحقيق : الترزي، إصدار دار التراث – بيروت .
١٤ – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص. ٢٤٤ .
١٥ – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص. ١٢٨ .
١٦ – جواد علي، المرجع السابق، ٢٥٦ .
١٧ – ДЖ. БИББИ, Впоисках Дидмуна. М., 1984, с 61 слд; 194 слд ; 325. ;
كذلك : علاء الدين شاهين، الخليج العربي : الموقع والأهمية – خلال عصر البرونز (١٤٥٠ – ١٠٠٠ ق.م) المؤرخ العربي – الصادر في القاهرة لعام ١٩٩٩، ص. ٧٢ .
١٨ – رضا جواد الهاشمي، مدخل لدراسة آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، بغداد ١٩٨١، ص. ٢٤ .
١٩ – مهيوب غالب أحمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري لجنوب شبه الجزيرة العربية – اليمن القديم –، ك ١، التاريخ السياسي، صنعاء ٢٠٠٣، ص. ٢٦-٢٩ ؛ كذلك : مجلة الرافد الإماراتية، الصادرة في فبراير ٢٠٠٤، ص. ١٠٧ .
٢٠ – W.F. Leemans, Trade, in the Old Babylonian period, p. Leiden, 1960.
٢١ – المملكة العربية السعودية – وزارة المعارف/ وكالة الآثار والمتاحف، آثار المنطقة الشرقية، ج ٥، الرياض ٢٠٠٣، ص. ٢١٤ .
٢٢ – الاكسندر نيميروفسكي . حكايا العالم القديم، تعريب فراس جلاحج، دار كنعان دمشق ٢٠٠٦، ص. ٤٧-٦٤ .
٢٣ – محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٣٠ .
٢٤ – نفسه، ص. ٣١ .
٢٥ – مجلة الكويت، المرجع السابق .
٢٦ – نفسه .

٢٧ – نيقولا زيادة، دليل البحر الإريتري وتجارة الجزيرة العربية، في كتاب : دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ك ٢/جامعة الملك سعود – ط ١، الرياض ١٩٨٤، ص. ٢٥٩ .

٢٨ – رضا الهاشمي، المرجع السابق، ص. ٢٠ .

٢٩ – نفسه، ص. ٥٩ ؛ كذلك محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٣٥–٣٦ .

٣٠ – رضا الهاشمي، المرجع السابق، ص. ٢٤ .

٣١ – Piny, Natural History, Loeb Classical Library, London, 1967, BK. XII, 41-100.

٣٢ – Гудяев В. И. Поеддесседовие к кн. ДЖ. БцББи Впоисках Дильмуна, с. 361-362; Бонгард-Девинн Г. М., Идьин Г.Ф. Древняя. Индия. М., 1969, с. 103.

٣٣ – Гордон Чайдд, Древний Восток в свете новых раскдпд, М., 1956, с. 3-2; Г. М. Бонгара-Девин, Древняя Индия. С. 92; см. Также: Щегенко А. Я., К вопросу об абсолотной хронологии харапnекой кудьтуры. - Археологии Сгарого и нового свега, М., 1966, с. 176-177.

٣٤ – محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٣٢ .

٣٥ – رحلة نيبور، ١٧٦١، تعريب : جلال بن خالد الهارون الأنصاري، منتدى التاريخ – يناير ٢٠٠٦ .

٣٦ – نفسه ؛ كذلك : جاكلين بيرين . اكتشاف جزيرة العرب، تعريب : قدري قلعجي، بيروت ب. ت.، ١٦٦ .

٣٧ – بيرين، نفسه، ص. ١٦٨–١٦٩ .

٣٨ – نفسه .

٣٩ – О ройнах Маган и Мелукка и истории переноса зтих названий на Египт и Куш см. Лео Оппенхейм, Древняя Месопатамия,

Портрет погибшей цивилизацт, М. 1980, Указатель, под словом "Магон" и "Медукка", с. 404.

٤٠ — См. Кобищанв Ю. М., На заре цивилизации, Африка в древнейщем ; мире. М. , 1980, с. 44 спл., كذلك : أحمد أرحيم هبو، تاريخ الشرق القديم ، (٣) مصر، مكتبة دار الهلال — بيروت ١٩٨٦، ص. ١٢٦، ٢٠١ .

٤١ — Шифман И. Щ. Из истории стран Красноморского бассейна материалам библейской традиции-, "Мероэ", вы. 3., М.,1985, с. 153-256.

٤٢ — المملكة العربية السعودية، المرجع السابق، ص. ٨٠ .

٤٣ — محمد حرب فرزات وعيد مرعي، دول وحضارات في الشرق العربي القديم ؛ سومر وأكاد وبابل وآشور وأمور وآرام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر — دمشق ١٩٩٠ ص. ١٥٩—١٦٠، ١٧٢ .

٤٤ — علاء الدين عبد المحسن شاهين، المرجع السابق، ص. ١٧٣ .

٤٥ — مايكل توبلن، الجوبة — مشروع وادي الجوبة الآثاري — في الجمهورية العربية اليمنية، لعام ١٩٨٢ ؛ تعريب زاهي حواس ومراجعة جاب الله علي جاب الله، ج ١، المؤسسة الأمريكية للأبحاث الشرقية، وجامعة هارفارد ومتحف جامعة بنسلفانيا — واشنطن ١٩٨٤، ١٩٨٥، ص. ٨٣، وفي المقدمة التي كتبها الدكتور عبد عثمان الصفحات ١٦—٢٠ ؛ وكذلك : عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، القاهرة ١٩٨٨، الص. ٢٧ كذلك : История Древнего Востока. Поа редакщей В. И. Кузнщина. М. , 1988, с. 230-241.

٤٦ — مهيوب غالب أحمد، المرجع السابق، ٣٤ .

٤٧ — محمد السيد غلاب، التجارة في عصر ما قبل الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ك ٢، الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٤، ص. ١٨٩ ؛ كذلك صبحي أنور رشيد، العلاقات بين وادي الرافدين وتيما — دراسات في تاريخ

الجزيرة العربية، ك ٢، الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٤، ص. ٣٨٧ -٣٨٩ ، كذلك عبد العزيز صالح، المرجع السابق .

٤٨ – جيمس هنري بريستد، انتصار الحضارة "تاريخ الشرق القديم"، تعريب : أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، ١٩٥٥، ص. ٢٧٥ .

٤٩ – حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص. ١٣٢ .

٥٠ – Mikhail Ivanovich Rostovtsev, The Social and Economic History of Hellenistic World, 3 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1984) vol. 1, pp. 83-90.

٥١ – محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٤٨ .

٥٢ – شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٩١، ص. ٦١ .

٥٣ – Edward Morgan Forster, Alexandria: A History and a Guide, A Doubleday Anchor Original: A 231, 3; ed. (Gaden City, N. Y.: Anchor Books, 1961), 141-153.

٥٤ – Sabatino Muscati, The World of Phoenicians, translatedfrom the Italian by Alastair Hamilton, Praeger History of Civilization (New York: Praeger, 1968.

٥٥ – Gordon Childe, What Happened in History, Apelican Book (Harmondsworth, Eng. : Penguin Books, 1942), p. 146.

٥٦ – Dougherty R. P. The Sea Land of Ancient Arabia, New Haven 1932, pp. 170-172.

٥٧ – Daniel David Luckenbill, Ancient Records of Assyria, Chicago 1927, vol. 2, pp. 318-321.

٥٨ – جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، تعريب : السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص. ٣٩ .

٥٩ — Истоия Африка . Хрестомагия, м. 1979, с. : Herodotus, The Percian Wars, IV, 41, translated by George Rawlinson with an introduction by francis R. B. Godlphin, Modern Library: 255 (New York: Modern Library, 1947, p. 306.

٦٠ — История Древнего Востока. С . 68.

٦١ — Истоиа Африки, Хрестоматия, М. 1979, с. 125.

٦٢ — حوراني، ٤٠ ، كذلك : Истоиа Африки, Хрестоматия, М. 1979, с. 125.

٦٣ — محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٤٤ .

٦٤ — حسن صالح شهاب، المرجع السابق، ص. ١٣٣ .

٦٥ — جواد علي، المفصل، ج ٧، ٢٦٧-٢٦٨ .

٦٦ —محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٤٧ .

٦٧ — Арриан, Инлия, ВДИ, 1940, 2, 20.

٦٨ — Арриан, Индия, ВДИ, 1940, 2, 19-32 (6-7).

٦٩ — Арриан, Инлия, ВДИ, 1940, 2, 43 (7)..

٧٠ — см. Арриан, Поход Адексанара. 1962, YII, 20, (6-10).

كذلك : حوراني، ٤٣ ،

٧١ — محمود شاكر، المرجع السابق ص. ٤٨ .

٧٢ — أنظر أريان سابقاً .

٧٣ — Арриан, Инлия, ВДИ, 1940, 2, 21-32.

٧٤ — Об этом подробио : Хаосгов М. М. История восточной торгонли см. грико-римского Египта, Казань 1907.

٧٥ — Pliny XII, 58.

٧٦ — المملكة العربية السعودية، المرجع السابق، ص. ٨٠-٨١ .

٧٧ — نفسه .

٧٨ – جواد علي، المفصل، ج ١، ص. ٥٦٢-٥٦٣ .

٧٩ – محمود شاكر، المرجع السابق، ص. ٤٩ .

٨٠ – كريستيان روبان، نقشان من مليحة، ريدان – العدد ٦، الصادر في ١٩٩٤، ص. ٨٠-٨٦ .

٨١ – المملكة العربية السعودية، المرجع السابق، ص. ٨١ .

٨٢ – حوراني، المرجع السابق، ص. ٤٥ .

٨٣ – См. Диодор сицилийский, историческая Библиотека, 111, 42-48, 4 особенно 42, 1-2.

٨٤ – عن هذه الرحلة أنظر : Страбон, 11, 111, 4.

٨٥ – أنظر كتاب الطواف حول البحر الإريتري الفقرة ٥٧ منه، وكذلك :

Плиний У1. 101

المصادر والمراجع المستخدمة في البحث

أولاً : المصادر والمراجع العربية والمعربة

١ – القرآن الكريم .

٢ – أبي الحسن محمد بن أحمد بن جبير، رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروفة بـ : رحلة ابن جبير، ط ٤، مكتبة دار الهلال/ بيروت ١٩٨٦ .

٣ – أحمد أرحيم هبــو، تاريخ الشرق القديم (٣) مصـر، دار الحكمة اليمانية – صنعاء ١٩٩٥ .

٤ – الكسندر نيميروفسكي، حكايا العالم القديم، تعريب : فراس جلاحج، دار كنعان – دمشق ٢٠٠٦ .

٥ – المملكة العربية السعودية، وزارة المعارف/ وكالة الآثار والمتاحف، آثار المنطقة الشرقية، ج ٥، الرياض ٢٠٠٣ .

٦ – بريستد جيمس هنري، انتصار الحضارة "تاريخ الشرق القديم"، تعريب : أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية/ ط ١، القاهرة ١٩٥٥ .

٧ – جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، تعريب : قدري قلعجي، بيروت بدون تاريخ .

٨ – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ١، منشورات الشريف الرضي، بغداد بدون تاريخ .

٩ – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، منشورات الشريف الرضي، بغداد بدون تاريخ .

١٠ – جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي، تعريب : السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨ .

١١ – حسن صالح شهاب، الأضواء على تاريخ اليمن البحري، بيروت ١٩٧٧ .

١٢ – رحلة نيبور ١٧٦١، ترجمة وتقديم : جلال بن خالد الهارون الأنصاري، منتدى التاريخ/ شبكة الطواش/ يناير ٢٠٠٦ .

١٣ – رضا جواد الهاشمي، مدخل لدراسة آثار الخليج العربي والجزيرة العربية، بغداد ١٩٨١ .

١٤ – شارل عيساوي، تأملات في التاريخ العربي، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت ١٩٩١ .

١٥ – صبحي أنور رشيد، العلاقات بين وادي الرافدين وتيما – دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، ك ٢، الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٤ .

١٦ – عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، القاهرة ١٩٨٨ .

١٧ – علاء الدين عبد المحسن شاهين، الخليج العربي : الموقع والأهمية – خلال عصر البرونز "١٤٥٠ – ١٠٠٠ ق.م." في مجلة المؤرخ العربي، العدد الصادر في القاهرة سنة ١٩٩٩ .

١٨ – مجلة الكويت، العدد رقم ٢٨٤ الصادر في يونيو ٢٠٠٧ .

١٩ – محمد حرب فرزات وعيد مرعي، دول وحضارات في الشرق العربي القديم سومر وأكاد وبابل وآشور وأمور وأرام، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق ١٩٩٠ .

٢٠ – محمد السيد غلاب، التجارة في عصر ما قبل الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ك ٢ ، الجزيرة العربية قبل الإسلام، الرياض ١٩٨٤ .

٢١ – مايكل توبلن، الجوبة – مشروع وادي الجوبة الآثاري – في الجمهورية العربية اليمنية، لعام ١٩٨٢ ، ترجمة زاهي حواس ومراجعة جاب الله علي جاب الله، ج ١، المؤسسة الأمريكية للأبحاث الشرقية، وجامعة هارفارد ومتحف جامعة بنسلفانيا – واشنطن ١٩٨٤ – ١٩٨٥ . فيما يخص استئناس الجمل لم نلمس رأياً واضحاً لدى البعثة الأمريكية، متى حدث على وجه التقريب، لكننا نلمس ذلك من خلال تأكيد البعثة على أن النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد شهد ميلاد الحضارة اليمنية القديمة (ص. ٨٣) . فضلاً عن ذلك كان وادي الجوبة منطقة عبور

القوافل التجارية منذ ذلك الحين . وهذا ما أكده الباحث اليمني الدكتور عبد عثمان (في الصفحات ١٦ – ٢٠) من المقدمة التي تعرض نتائج أعمال هذه البعثة .

٢٢ – محمد بن محمد عبد الرزاق الحسيني أبو الفيض الملقب بمرتضى الزبيدي تاج العروس . تحقيق : الترزي، إصدار دار إحياء التراث – بيروت (مصدر الكتاب موقع الوراق – في الشبكة الدولية) .

٢٣ – مهيوب غالب أحمد، التفاعل الحضاري في جنوب غرب آسيا في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، مجلة الرافد الإماراتية العدد ٧٨، الصادرة في الشارقة في فبراير ٢٠٠٤ .

٢٤ – مهيوب غالب أحمد، مدخل إلى دراسة التاريخ السياسي والحضاري لجنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن القديم)، ك ١، التاريخ السياسي، صنعاء ٢٠٠٣ .

٢٥ – نيقولا زيادة، دليل البحر الإريتري وتجارة الجزيرة العربية البحرية، في كتاب : دراسات تاريخ الجزيرة العربية، ك ٢، جامعة الملك سعود – ط ١، الرياض ١٩٨٤ .

٢٦ – نزيه مؤيد العظم، رحلة في بلاد العرب السعيدة، ط ٢/ ج ١–٢، مؤسسة فادي برس – لندن ١٩٨٥ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

(باللغتين الإنجليزية والروسية)

١ – Dickson, H. R> P. , The Arab of the Desert, London, 1951, p. 480.

٢ – Daniel David Luckenbill, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago 1927, vol. 2.

٣ – Dougherty R.P. The Sea land of Ancient Arabia, New Haven 1932.

٤ – Edward Morgan Forster, Alexandria: A History and a Guide, A Doubleday Anchor Original: A 231, 3.

٥ – Gordon Childe, What Happened in History, A Pelican Book (Harmondsworth, Eng.: Penguin Books, 1942.

٦ – Herodotus, The Persian Wars, IV, 42, translated by Geoge Rawlinson with an introduction by Francis R. B. Godolphin, Modern Library: 255 (New York: Modern Library, 1947).

٧ – Christian Julian Robin, A. Deux briques inscrites provinant de Mulayha, Raydan, vol. 6, 1994.

٨ – R. Ghrshman, Iran (London: . . , 1954), pp. 181-188.

٩ – McGrail, S. Building and Trials of a Riplica of N ancient Boat: Gokstad Faring, World Archaeology 16, 1985,pp. 289-303. في كتاب : البحر والتاريخ، عن سلسلة عالم المعـرفة/ السابعة – الكويت، الصـادر في أبريل ٢٠٠٥ .

١٠ – Mikhail Ivanovich Rostovtsev, The Social and Economic History of Hellenistic World, 3 (vols Oxford: Clarendon Press, 1941), vol. I.

١١ – National Geographic Magazine, April 1965, Washington.

١٢ — Pliny, Natural History: Loeb Classical Library, London, 1967, BK. XII, 41-100.

١٣ — Praeger History of Civilization (New York: Praeger, 1968).

١٤ — Sabatino Moscati, The World of Phoenicians, translated from the Italian by Alastair Hamilton.

١٥ — W. F. Leemans, Trade in the Old Babylonian period, p. 31, London 1960.

١٦ — Арриан, Индия, ВДИ, 1940, 2. قمنا بالترجمة المباشرة للنصوص من اللغة الروسية إلى العربية المستخدمة في البحث .

١٧ — Арриан, Поход Адександра, 1962 УП, 20.

١٨ — ДЖ. БиББи, В понсках Дильмуна, М., 1984, с. 61 слл, 194 слл, 325.

١٩ — Бонгард, Левин Г. М., Ильин Г. Ф. Древняя Индия, М., 1969, с. 103.

٢٠ — Г. Девин, Древняя, Индия, Бонгард- М.

٢١ — Диодор сицилийский, исторической Бцблиотека, Ш, 1.

٢٢ — Гуляев В. И. Послесвний Восток в свете новых раскопок, М., 1956.

٢٣ — Гуляев В. Н. Послесловие к кн. ДЖ. Биббн В понсках Дильмуна, с. 361-363.

٢٤ — История Древнего Востока. Под редакцией В. И. Кузищина, Москва 1988.

٢٥ — Истоия Африки, Хрестоматня, М. 1979.

٢٦ — Кобищанор Ю. М., На заре цивилизации, Африка в древнейшем мире М., 1980.

A. део Оппенхейм, Древняя Месопатамия, Портрет погибшей цивилизации, М. 1980, Указатель, под словом "Магон" а "Мелукка". — ٢٧
Хвостов М. М. История восточной торгоили грнко-римского Египта, Казань 1907. — ٢٨
Псевдоарриан, Плавания Вокруг Еритрийского Морья, ВДИ, 1940, 2, с. 264-281. — ٢٩
Щетенко А. Я. К. Вопросу об абсолютной хронологии хараппской культуры, "Археологии Старого и Норого света", М., 1966. — ٣٠
Шифман И. Ш. Из истории стран Красноморского бассеиа / по материалам библейской традиции/ ,- " Мероэ" , Вып. 3, М. , 1985, с. 253-256. — ٣١

الخليج

كما ورد في المشروع
الذي قدمته البعثة الدبلوماسية من جورجيا
لملك فرنسا لويس الرابع عشر
في القرن الثامن عشر

تعود الصلات المتبادلة بين جورجيا والبلدان العربية إلى قرون عديدة بداية من القرن الأول الهجري . ولقد ظلت تفليس، عاصمة جورجيا، إمارة تحت حكم العرب لمدة حوالي ٢٥٠ عاماً .

وترك حكام تفليس العرب بصمات العلاقات الجورجية العربية بشكل استيعاب المفردات العربية في نقوش جورجيا ونقوش العرب على السواء . وتم الاحتفاظ بالمخطوطات العربية، كما أن المصادر العربية كثيرة في جورجيا، ومنها على سبيل المثال، كتابات كل من المسعودي والطبري وابن الأثير وياقوت الحموي والقلقشندي . . الخ .



بقلم :
البروفيسور
غورام
شيكوفاني

لويس الرابع عشر
ملك فرنسا ١٦٤٣م

ومن الجدير بالذكر أن كتاب "تاريخ الميافارقين" للأزرق الفارق الذي ولد في عام ٥١٠هـ/١١١٦م في مدينة الميافارقين . وسافر كثيراً في سوريا وبلاد الرافدين وجاء إلى جورجيا في ٥٤٨هـ/١١٥٣م ودخل في خدمة البلاط الملكي لدى ابن الملك العظيم ديفيد اغماشنيبلي (الباني والمجدد) ديمتري الأول (١١٢٥ – ١١٥٥م) . وسافر الفارق في منطقة جورجيا مصاحبا ديمتري وكتب عن أحوال جورجيا . وفي عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م قام ديمتري بدراسة ساحة قتال "ديديغوري" حيث دارت فيها حرب بين ديفيد أغماشنيبلي ونجم الدين الغازي في عام ٥١٥هـ/١١٢٢م

انهزم فيها نجم الدين الغازي . واحتفظ الفارق بالقوانين التي دونها ديفيد عن المسلمين والتي كانت سارية المفعول آنئذ . وضرب ديفيد سكة معدنية (عملة) باسمه وأسماء كل من الخليفة والسلطان . وكان الفارق شاهد عيان لدخول ديمتري إلىً مسجد يوماً من أيام الجمعة وجلوسه في كرسي عال أمام الخطيب . وعند مغادرته المسجد تبرع بمبلغ قدره ٢٠٠ دينار . وعامل العلماء والفقهاء المسلمين باحترام .

وحسبما ورد في تقرير للفارق كانت تفليس تحت حكم سلالة مسلمة لمدة قرنين من الزمن . وفيما بعد انتقل الحكم إلى عائلاتها الأرستوقراطية . وكان حكم المدينة ينتقل من شخص إلى آخر كل شهر وكان هذا من حق كل مواطن . وهذه معلومات هامة . وكان هذا النظام يشبه النظام الذي ساد المجتمعات في المدن الأوروبية في القرون الوسطى حيث كان يمارس مجلس المدينة مهام الحكم يتداول فيه أعضاؤه باستمرار بالنوبة . ونود أن نستعيد لأذهاننا بعض الآثار التي تركها العرب في القرون الأولى الهجرية . ونذكر على سبيل المثال مَعْلماً حجرياً لتحديد المسافة تم اكتشافه في تفليس القديمة، عليه نقوش عربية : "بسم الله الرحمن الرحيم — ثلاثة أميال من تفليس" . وحسب قول المؤرخين العرب كان العرب يحددون المسافة التي اجتازوها أثناء الحملات العسكرية وينقشون الأرقام على الأحجار . ولكن مثل هذه المعالم تلاشت ويوجد بعضها فقط في جورجيا أو فلسطين غير أن البحث عنها مهم إذا أردنا دراسة العلاقات الجورجية العربية . وتوجد مخطوطات كثيرة في مكتبات عديدة في قوقاز تحتاج

إلى تصنيفها وفهرستها والفحص فيها مما يعود بفائدة كبيرة ويسلط الضوء على الثقافة العربية بقدر ملحوظ . إن التاريخ الحالي لشعب قوقاز الشمالية تم تدوينه دون أن يؤخذ بعين الاعتبـــار التقاليد اللغوية والأدبية للإقليم . وكانت اللغة العربية، اللغة الوحيدة للكتابة في كل من الشيشان وداغستان عبر قرون عديدة .

وكتب الكتاب مثل "شامل" وزملاؤه بهذه اللغة . والإحصائيات التالية تثبت مكانة اللغة العربية المتينة في قوقاز الشمالية . وحسب رأي المستعرب الروسي (أ. جينكو) فقد طبع ١٥١,٠٥٠ كتاباً في قوقاز الشمالية بالعربية حول ٨٢ موضوعاً في فترة ٤ سنوات من أول سبتمبر عام ١٩١٠ إلى أول سبتمبر ١٩١٤م .

وتوضح هذه الأرقام مدى انتشار الأدب العربي في قوقاز . ومما لاشك فيه أن تنظيم الأبحاث في المؤلفات العربية يستحق الاهتمام إذا استهدفنا دراسة وافية في العلاقات العربية القوقازية .

أريد أن أركز في هذا البحث على علاقات جورجيا مع البلدان الخليجية في القرن الثامن عشر . ولدينا بهذا الصدد مصدر هام وهو المعلومات عن أمير جورجي شهير "سلخان صبا أوربيلياني" وهو عالم باهر وصاحب موسوعـــة، نفذ مهمـــة دبلوماسية في فرنسا في عام ١٧١٤م .

ومنح "سلخان صبا أوربيلياني" تصريحاً مرتين ليقابل ملك فرنسا لويس الرابع عشر . وقد جرى اللقاء الأول بينهما قبل ١٤ أبريل

١٧١٤م . وكان لهذا اللقاء بين سلخان صبا والملك لويس ووزرائه كبير الأثر على الملك . وقد أعجب الملك ووزراؤه بشخصية سلخان صبا كما يظهر جلياً من محضر اللقائين والوثائق الأخرى المتعلقة بهما .

اجتمع "سلخان صبا أوربيلياني" بالملك لويس الذي كان آنئذ يتماثل للشفاء ويمر بفترة النقاهة وكان مزاجه متوتراً . ولما قدم "سلخان صبا أوربيلياني" تهانيه لملك فرنسا على شفائه رد الملك قائلاً بأنه على الرغم من تغلبه على أحد الأعداء إلا أنه تعرض لغزو من عدو آخر نتيجة لضعف الشيخوخة . وأضاف قائلاً بأن الحياة تصبح صعبة بعد الستين من العمر . وكان عمره آنئذ ٧٥ سنة . وذكر رقم ستين كمؤشر لضعف الشيخوخة .

فرد عليه "سلخان صبا أوربيلياني" : "إن مظهر جلالتكم الرائع لا يبدي الضعف وبالعكس يتمنى كل واحد أن يبدو بهذه الروعة في مظهره !" .

وبعث هذا الرد من سلخان بموجة من البهجة لدى الملك الذي جعل هذا اللقاء بينه والأمير الجورجي حماسياً وحاراً .

وجاءت زيارة "سلخان صبا أوربيلياني" لفرنسا في ضوء الأوضاع السائدة في قوقاز في القرن الثامن عشر . وكانت جورجيا آنئذ تعاني من نير مزدوج لكل من إيران وتركيا . وجاهدت جورجيا بشدة لتجد حليفاً لها في تصديها للعدوان الإيراني ووجدت أن فرنسا قد تؤيدها إذ كان لها نفوذ لا يستهان به في الشرق . والتفاهم مع فرنسا قد يعطي لها

القدرة على كبح جماح الإمبراطورية العثمانية التوسعية . ومن منظورها واجهت جورجيا الخطر العثماني لأقصى درجة فاقترحت لفرنسا مشروعاً للتحالف معها، ومفاده أن تكون جورجيا حليف فرنسا عسكرياً وسياسياً في قوقاز لوضع حد لامتداد نفوذ إيران في قوقاز وأن تتبع جورجيا سياسة تناسب مصالح فرنسا .

وأكدت جورجيا أن تحقيق مشروع لجورجيا وفرنسا سيمهد الطريق لإقامة علاقات مع المشيخات العربية في الخليج . ونظراً لأن المصالح الإيرانية أيضاً تركزت على الخليج فكان على فرنسا أن تهتم بإقامة تحالف استراتيجي في منطقة الخليج . وحسب المشروع الذي قدمه "سلخان صبا أوربيلياني" كانت منطقة الخليج محوراً استراتيجياً مركزه مسقط . وإذا حصلت نكسة في هذا المحور عسكرياً فيمكن أن يتم الانسحاب أو الهروب منها في ظرف ثلاثة أيام . وتشكل مسقط ميناءً هاماً في بحر عمان، وكان سلطان عمان حريصاً على أن يتفاهم مع الملك لويس كي تصبح عمان محمية فرنسية . وإذا ثبت ملك فرنسا قدميه هناك فيستطيع أن يقوض مكانة الإنجليز والهولنديين في الهند وكذلك يضع حداً للطموحات في الجنوب في عمان وفي الشمال في جورجيا .

ومن هذه الناحية علقت جورجيا أهمية كبيرة على العلاقات مع البلدان العربية . وأدركت جورجيا جيداً بسبب موقعها الجغرافي ما بين قوقاز وعمان فهما تواجهان نفس المخاطر وتحاولان إقامة علاقات ودية مع الدول العربية الخليجية .

وصل "سلخان صبا أوربيلياني" إلى مارسيليا في فبراير عام ١٧١٤م . وضمن إنجاز مهمته قدم تقريراً لوزير المواصلات البحرية "لويس فليبو دي بونشاترين" (١٦٤٣ — ١٧٢٧م) الذي وجد المشروع الجورجي مهماً جداً لخدمة مصالح فرنسا فنقله إلى الملك لويس الرابع عشر لإمعان النظر فيه .

احتل "لويس فليبو دي بونشاترين" مكاناً بارزاً في التاريخ السياسي الفرنسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وتولى مناصب هامة في حكومة فرنسا كمفتش عام للماليات (١٦٨٩ — ١٦٩٩م) ووزير الدائرة البحرية ووزير الديوان الملكي ورئيس أكاديمية العلوم والمستشار (١٦٩٩ — ١٧١٤م) . وفي نفس الوقت كان ابنه "بروم فيليب دي بونشاترين" رجل دولة بارزاً (١٦٧٤ — ١٧٤٧م) وأصبح وزيراً للدولة في عام ١٦٩٣ م . وحل محل أبيــه في دائرة المواصلات البحرية والديوان الملكي . ورغم أن الأب والابن احتلا نفس المناصب إلا أن لكل منهما دور خاص في التاريخ .

"لويس فليبو دي بونشاترين" كما لاحظنا علق أهمية كبيرة على مشروع "سلخان صبا أوربيلياني" الذي يشكل أساساً لتحالف فرنسا بجورجيا . وأن التحالف العسكري مع البلاد العربية كان بإمكانه أن يوسع نطاق نفوذ الملك الفرنسي في منطقة الخليج . ومن هذه الناحية كان المشروع يحمل في طياته أهمية استراتيجية كبيرة في القرن الثامن عشر . وهو الأمر الذي لا يزال يحمل نفس الأهمية حتى هذا اليوم .

وعقد "لويس فليبو دي بونشاترين" مفاوضات مبدئية مع وزير الخارجية، "ماركويس كولبرت دي تورسي" واتفق معه مسبقاً على بنود المشروع قبل تقديمه إلى صاحب الجلالة . وكان "لويس فليبو دي بونشاترين" مقتنعاً تماماً بفائدة مشروع جورجيا وتوسعة نطاقه . وكانت النقطة الأساسية فيه هي إقامة تحالف استراتيجي بين فرنسا وجورجيا من جهة ومع الدول الخليجية من جهة أخرى . وقد أخذ "دي تورسي" بعين الاعتبار النظريات التي تضمنها المشروع ووعد بتأييده لصاحب المشروع كلما اقتضى الأمر .

وكان لـ "دي تورسي" (١٦٦٥-١٧٤٦م) نفوذ كبير في البلاط الملكي الفرنسي . واحتل منصبي وزير الدولة ووزير الخارجية . كما كان عضواً بارزاً بالأكاديمية الفرنسية منذ عام ١٧١٨م . وكان أداؤه كوزير للخارجية معترفاً به ونال تقديراً في تاريخ الدبلوماسية الفرنسية . وأعطت موافقة كل من "بونتشاترين" و "دي تورسي" على المشروع له دعماً قوياً لتحقيقه . وصرح "دي تورسي" أن دبلوماسية جورجيا صنعت مشروعاً عظيماً للغاية .

وقام باحث فرنسي في العلوم العسكرية يسمى "الجنرال لويس كوكيت" بدراسة مشروع "سلخان صبا أوربيلياني" دراسة مستقلة في ٢٠ أبريل ١٩٢٥م وأعد تقريراً عنه وعرضه على جامعة السوربون . وقال فيه الجنرال مخاطباً الفرنسيين بأنه لا توجد حتى وثيقة واحدة في أرشيفات وزارة الخارجية من مستوى وثيقة مشروع جورجيا الرائع من حيث ترتيب وتصنيف محتوياته ليخدم الأغراض السياسية

والتجارية والعسكرية في المناطق المذكورة (الدول الخليجية وجورجيا) . وفي حالة تنفيذ المشروع فعلاً سوف تستفيد فرنسا لحد كبير . وكان تقييم الجنرال كوكيت مبنياً على الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج وجورجيا من منظور سلخان صبا . وكانت دبلوماسية جورجيا على علم بأهمية منطقة الخليج الاستراتيجية وأدركت أهمية البحرين عبر قرون عديدة كمركز حيوي للتجارة والمواصلات . وهو الأمر الذي جعلها موضع طموحات برتغالية وغيرها . وفي بداية القرن الثامن عشر، كانت إيران تتمتع بمكانة مستقرة في كل من البحرين وجورجيا . ولذلك واجهت كل من البحرين وجورجيا مشاكل مماثلة بالنسبة لإيران . ورأى البلدان أن استراتيجية مشتركة بينهما قد توقف طموحات إيران التوسعية . وحاول سلخان صبا حماية وطنه من سيطرة إيران عليه عن طريق دبلوماسيته . وكان الوضع قد أصبح متوتراً بسبب اعتقال إيران لملك جورجيا "فاختانج" السادس . ورغم أن إيران احترمت ملك جورجيا، غير أنها لم تثق به وقبضت عليه وأخذته رهينة . وكان سلخان صبا عم الملك فاختانج قد رباه في طفولته . مما جعله نشيطاً في الحصول على دعم من كل من فرنسا وبلدان الخليج لمشروعه .

وبصفة عامة ، فإن أية دولة تحافظ على علاقات ودية مع جيرانها نظراً لأنها تواجه نفس المشاكل ولها نفس المصالح . وانطلاقاً من هذا المبدأ علينا أن ننظر إلى مبادرات جورجيا نحو البلدان العربية في القرن الثامن عشر بهدف تحسين العلاقات معها . وفي ذلك الوقت كانت البحرين تستعد للتخلص من عبء الأجانب بفضل جهود أسرة آل

خليفة الحاكمة . وفي هذه الفترة كانت سلطنة عمان قد أفلتت من نير البرتغاليين وتكافح من أجل أن تصبح دولة قوية في الخليج وتمضي قدماً في إنشاء أسطول بحري قوي لهذا الغرض .

كانت الدول الخليجية (البحرين وعمان بصفة خاصة) تملك آنئذ أسطولاً بحرياً قوياً وفقاً لتقاليدهما التاريخية . ويجدر هنا ذكر "أحمد بن ماجد" العماني الذي كان مرشداً لـ "فاسكو دي جاما" في اكتشافه لرأس الرجاء الصالح في عام ١٥٠٧م . وطار صيت أحمد بن ماجد في مجال الملاحة كملاح ماهر . وفي عام ١٦٥٠م، أي بعد ١٥٠ سنة، حرر سلطان بن سعيد اليعربي مسقط بأسطوله البحري القوي، كما نجح أيضاً في كسب نفوذ استعماري في شرق أفريقيا .

وبذل سلخان صبا جهداً كبيراً ليلفت أنظار الدول الخليجية وفرنسا نحو جورجيا . وفي مشروعه أشار إلى ميزة جورجيا كطريق تجاري يربط بين الشرق والغرب ويقرب المسافة بينهما إلى ربع المسافة المستخدمة . والطريق المقترح هو طريق الحرير المثالي الذي يوصل شحنات البضائع إلى أوروبا بسلامة عبر جورجيا والبحر الأسود .

ونالت استنتاجات سلخان صبا تأييداً من الخبير الفرنسي "جين ريتشارد" الذي درس الموضوع ميدانياً في جورجيا . وأعرب عن موافقته على فكرة استخدام إقليم جورجيا كطريق الحرير . وهذا ما نقله جين ريتشارد لفرسائي من مارسيليا بعد إكمال جولته بقوله : "إنني عثرت على ممر ضيق في غرب جورجيا يربط بين البحر الأسود وكارتلي عن

طريق غوريا – هما مملكتان صغيرتان في جورجيا – وأكثرية سكانهما مسيحيون . فيمكن لنا أن نجنب ترابيزون ونحرر مدينة أخالسيخي من نير الأتراك . ويوفر لنا هذا الطريق الاقتصاد في نفقات المواصلات في نقل الحرير من مقاطعة جيلان إلى بندر عباس ومن هناك إلى الجمارك في كل من أرزرم وترابيزون . . . الخ . وقد شاهدت كمية ضخمة من الحرير والشمع في تلك المناطق . وربح بعض المرافقين لي بقدر ٥٠٪ في القسطنطينية من تجارة الحرير، وقد جئت ببعض النماذج منه" .

كانت الدوائر التجارية في مارسيليا على اتصال بريتشارد كي تحصل منه على المعلومات التجاريـــة عن جورجيا والبلدان الأخرى . لكن ريتشارد كان ملزماً بمراجعة البلاط الملكي أولاً بأول عن نتائج زيارته . وكتب ريتشارد لأحد الوزراء : "حاول أحد موظفي البلدية وثلاثة تجار لأقصى حد أن يحصلوا على معلومات عن ملاحظاتي حول الخليج وجورجيا وإمكانيات التجارة في المنطقة . لكن المستر دارنيوس اعترض وقال لي منزعجاً بأن تلك الملاحظات كانت لعلم النبلاء أولاً وعليهم نقلها إلى الجماعة إن اقتضى الأمر" .

وكل هذا يدل على الأهمية الكبرى التي علقت بفكرة الطريق الحريري كأقصر طريق يربط بين الشرق والغرب في بداية القرن الثامن عشر .

وقد برزت إلى الأفق فكرة استعادة الطريق الحريري من جديد على أعتاب القرن الواحد والعشرين . ويمهد هذا المشروع الطريق لربط آسيا الوسطى بقوقاز عن طريق البحر الأسود . وهذا هو موضع اهتمام

المجتمع الدولي . ونال مشروع جورجيا عن طريق الحرير المقترح لتخفيض نفقات السفر ومدته إلى نسبة الربع، نال إعجاب "بون شاترين" على شرط أن يحصل التحالف السياسي والعسكري بين فرنسا وجورجيا من جهة والبلدان الخليجية من جهة أخرى . وتكون نتيجة هذا التحالف، عرقلة الإنجليز والهولنديين في مد نفوذهما في الهند وكبح الطموحات من الجنوب والشمال .

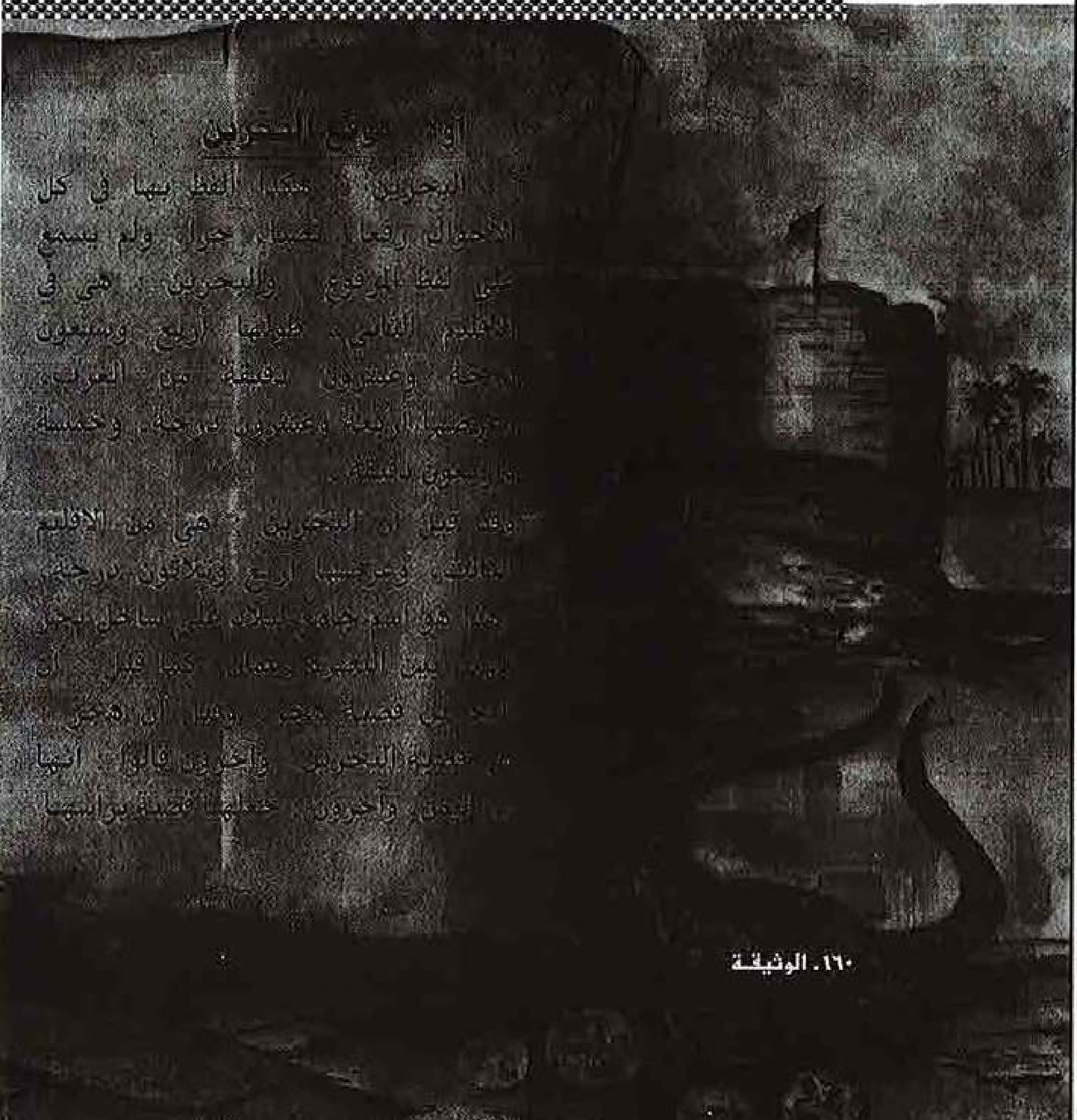
ومن المبررات الأخرى المؤيدة لهذه الفكرة أن أم حاكم مسقط كان أصلها يعود إلى جورجيا . ومنذ حوالي قرن من الزمان، ظلت سلالة "اندلادزي" الحاكمة تمارس النفوذ في الجنوب .

وبعد سنة من الرسالة مات لويس الرابع عشر ودخل المشروع إلى طي النسيان .

ونفّذ القيصر الروسي بطرس الأعظم المشروع ووضع جورجيا بالتدريج تحت حماية روسيا .

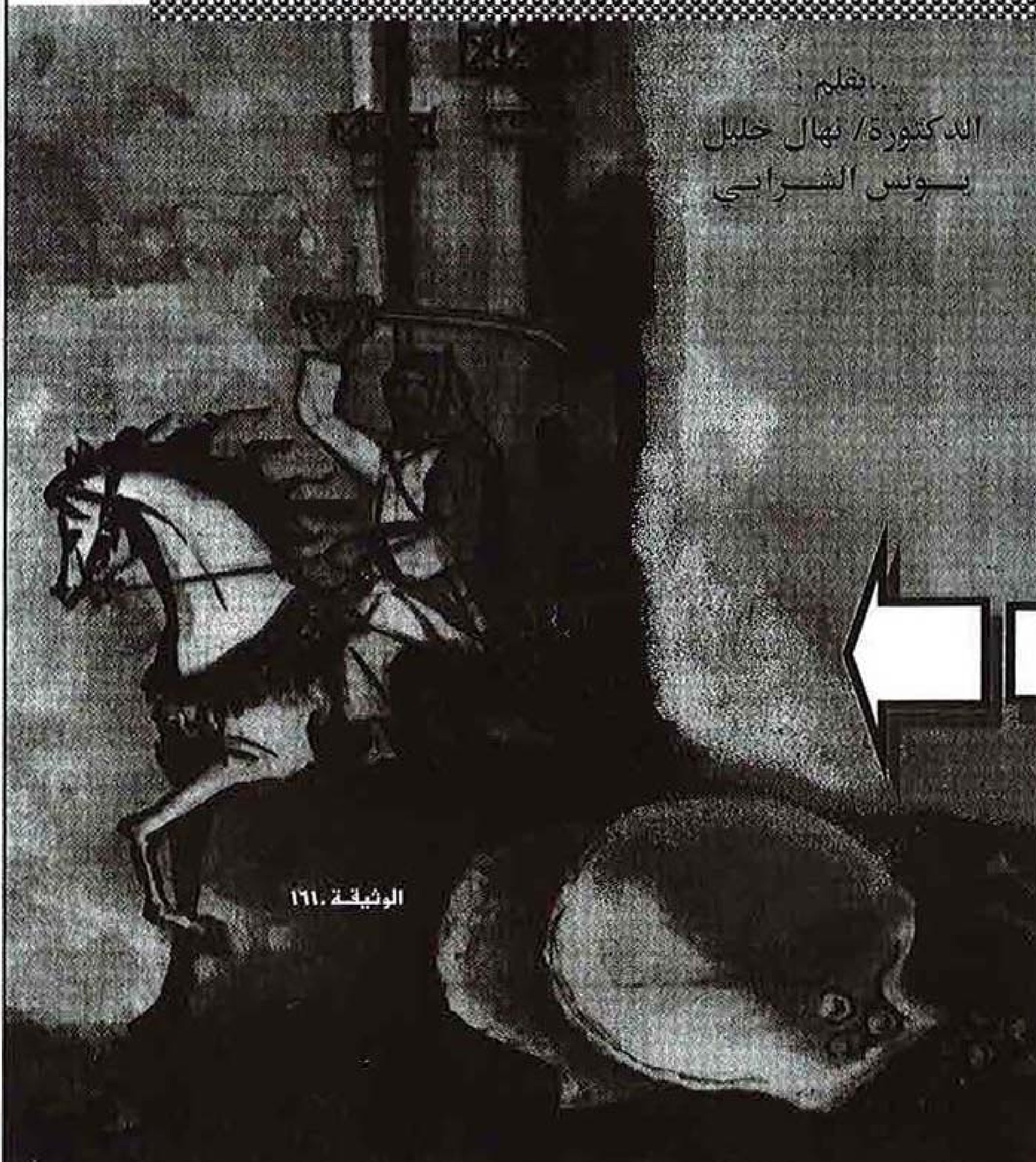
البروفيسور غورام شيكوفاني

ولاية العلاء بن



الحضرمي على البحرين

..بقلم:
الدكتورة/ نهال خليل
يونس الشرابي



وعدُّ البعض اليمامة من أعمال البحرين، ولكن الصحيح أن اليمامة عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين .

وعن ابن عباس أن البحرين من أعمال العراق وحدّه من عُمان ناحية جُرفار . واليمامة تقع على جبالها، وربما ضمت اليمامة إلى المدينة وربما أفردت، هكذا كان في زمن الخلافة الأموية .

أما في زمن الخلافة العباسية فأصبحت عُمان والبحرين واليمامة عملاً واحداً .

وعن ابن الفقيه، وأبو عبيدة بين البحرين واليمامة حوالي مسيرة عشرة أيام . وبين هجر مدينة البحرين والبصرة حوالي مسيرة خمسة عشر يوماً على الإبل، وبينها وبين عمان مسيرة شهر .

وقد قيل أن البحرين تضم : الخط، والقطيف، والآرة، وهجر، وبينونة، والزارة، وجواثا، والسابور، ودارين، والغابة .

كما قيل أن الصفا، والمُشقَّر قصبة هجر .

والبحرين : هي بلاد واسعة، وفيها عيون ومياه .

ثانياً : اشتقاق اسم البحرين :

إن في اشتقاق كلمة البحرين، أو اسم البحرين وجهان أو قولان :

الاشتقاق أو القول الأول :

يجوز أنه مأخوذ من قول العرب، بَحَرت الناقة إذا شقَّت أذنها، لأن البحيرة هي المشقوقة الأذن . من قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم "ما

جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفْتَرون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون" صدق الله العظيم . (سورة المائدة / الآية ١٠٣) والمقصود بالسائبة : أن الرجل في الجاهلية كان يسيب من ماله، فيذهب به إلى سدنة الآلهة . كما يقال أن السائبة : هي الناقة التي كانت إذا ولدت عشرة أبطن كلها إناث سيبت فلم تركب، ولم يُجزّ لها وبر وبحرت أذن ابنتها أي خرقت . فإذن البحيرة هنا : هي السائبة، وهي تجري عندهم مجرى أمها في التحريم .

الاشتقاق أو القول الثاني :

فهو مأخوذ من قول العرب : قد بحر البعير بحراً إذا أولع بالماء فأصابه منه داء، كما يقال : قد أبحرت الروضة إبحاراً، إذا كثر إنقاع الماء فيها فأنبتت النبات .

كما يقال للروضة : البحرة . ويقال للدم الذي ليست فيه صفرة : دم باحريّ، وبحراني .

وعلى حد قول المؤلف ، قلت : هذا كله تعسف لا يجوز أن يكون اشتقاقاً لاسم البحرين، والصحيح هو قد يكون ما ذكره أبو منصور الأزهري حيث يقول : "إنما سموا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء، وقرى هجر بينها وبين البحر . . . عشرة فراسخ، وقدرت هذه البحيرة ثلاثة أمثال في مثلها، ولا يفيض ماؤها، وماؤها راكد زعاق" .

وعن أبي محمد اليزيدي أنه قال : سألني المهدي، وسأل الكسائي عن النسبة إلى البحرين، وإلى حصنين لم قالوا حصنيّ وبحراني ؟

فقال الكسائي : كرهوا أن يقولوا حصناني لاجتماع النونين، وإنما قلت : كرهوا أن يقولوا بحريٌ فتشبه النسبة إلى البحر، وفي ذلك قصة طويلة، ذكرها ياقوت الحموي في أخبار اليزيدي في كتابه أخبار الأدباء . وينسب إلى البحرين جماعة من أهل العلم والمعرفة منهم : محمد بن معمر البحراني بصري، ثقـة، حدّث عنه البخاري، والعباس بن يزيد بن أبي حبيب البحراني، وهو الذي يلقب بعباسويه، حدّث عن خالد بن الحارث وابن عيينة، ويزيد بن زريع، روي عنه الباغنـدي، وابن صاعد، وابن مخلد، وهو من الثقـاة . توفي سنة (٢٥٨هـ/٨٧١م)، وكذلك زكريا بن عطية البحراني وغيرهم .

ثالثاً : ابن الحضرمي :

الاسم واللقب :

العلاء بن الحضرمي – واسم الحضرمي : عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن أكبر بن عويف بن مالك بن الخزرج بن أُبَيّ بن الصدف – وقيل : عبد الله بن عمار – وقيل عبد الله بن ضمار – وقيل : عبد الله بن عبيدة ضمار بن مالك – وقيل عبد الله بن عباد . والعلاء بن الحضرمي صحابي من رجال الفتوح في صدر الإسلام، أصله من حضرموت، سكن أبوه مكة، فولد ونشأ فيها . وقد قيل له الحضرمي : لأنه جاء من بلاد حضرموت، وكان قد سكن مكة، وحالف حرب بن أمية، والد أبي سفيان، وكان للعلاء عدة أخوة وهم : عمرو، وعامر، وميمون، وكانت لهم أخت اسمها الصعبة .

وعمرو أول قتيل قتل من المشركين قتله مسلم يوم نخلة، وبسببه كانت وقعة بدر سنة (٢هـ/٦٢٣م) .

أما عامر، فإنه قتل يوم بدر كافراً . وبالنسبة لأخيهم ميمون، فهو المنسوب إليه بئر ميمون، والتي كان موقعها بأعلى مكة، كان قد احتفرها في الجاهلية، وذلك قبل المبعث .

أما أختهم الصعبة بنت الحضرمي، فكان قد تزوجها أبو سفيان بن حرب بن أمية، ولكنه بعد فترة قليلة طلقها، وذلك بسبب إلحاح زوجته (هند بنت عتبة) . فتزوجت (الصعبة) بعد طلاقها من شخص آخر اسمه عبيد الله بن عثمان التيمي، فأنجبت له ولداً أسموه طلحة، فكانت تكنى (أم طلحة) .

ولكن الذي يظهر من خلال الروايات أن أبا سفيان ظل يهواها، وقد قال فيها شعراً :

وإنـــا وصعبـة فيما ترى	بعيـدان والــود قـريـب
فإلا يكـن نسـب ثاقـب	فعند الفتــاة جمال وطيب
لها عند سـري نــــخرة	يزول بها يذبل أو عسيب
فيا لقصي ألا فاعجبــوا	فللوبر صار الغزال الربيب

رابعاً : ولاية ابن الحضرمي على البحرين :

كان العلاء بن الحضرمي من كتاب رسول الله ﷺ ، وكان من فضلاء الصحابة . كان رسول الله ﷺ ، قد بعث العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى العبدي بالبحرين، وذلك بعد منصرفه من الجعرانة، سنة (٨هـ/٦٢٩م)، وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام . وجعل له جباية الصدقة، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة في الإبل، والبقر، والغنم، والثمار والأموال . وأمره أن يأخذ الصدقة من أغنيائهم ويردها على فقرائهم .

وبعث رسول الله ﷺ معه نفراً كان من بينهم أبي هريرة وقال له : "استوص به خيراً" .

وعن أبي هريرة قال : "بعثني رسول الله ﷺ مع العلاء بن الحضرمي، وأوصاه بي خيراً فلما فصلنا قال لي : إن رسول الله ﷺ ، قد أوصاني بك خيراً فانظر ماذا تحب، قال : قلت : تجعلني أؤذن لك ولا تسبقني بآمين . فأعطاه ذلك" .

وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قد كتب إلى العلاء بن الحضرمي أن يقدم عليه بعشرين رجلاً من عبد القيس، فقدم عليه منهم بعشرين رجلاً رأسهم عبد الرحمن بن عوف الأشجّ، واستخلف العلاء على البحرين المنذر بن ساوى فشكا الوفد العلاء بن الحضرمي فعزله رسول الله ﷺ ، وولى ابان بن سعيد بن العاص، وقال له : "استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم" .

وإذا أخذنا بالرواية الأولى فإن الرسول ﷺ كان قد ولى العلاء بن الحضرمي البحرين، حيث أنه عندما بعث رسولاً من قبله ﷺ، فتحها، وأسلم صاحبها المنذر بن ساوى . وأسلم أهل البحرين، وحمل العلاء إلى رسول الله ﷺ ، مائة ألف وثمانين ألف درهم، فبعث أهل البحرين بخراجهم، فكان أول مال ورد المدينة المنورة هو خراج البحرين ومقداره سبعون ألفاً .

توفي رسول الله ﷺ وابن الحضرمي والياً على البحرين، وعندما ولي الخلافة أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقره عليها، ثم أقره أيضاً عليها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

بعث الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى ابن الحضرمي وقال له : "إني وجدتك من عمال رسول الله ﷺ، الذين ولى فرأيت أن أوليك ما كان رسول الله ﷺ ولاك، فعليك بتقوى الله" .

وهنا خرج ابن الحضرمي مع حوالي ستة عشر راكباً معه فرات بن حيان العجلي دليلا، وكان خروجهم من المدينة المنورة .

وكتب الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ كتاباً للعلاء بن الحضرمي وهو أن ينفر معه كل من مر به من المسلمين إلى عدوهم، فسار العلاء مع من تبعه منهم فنزل بحصن (جواثي) وفتحه، وهو حصن لعبد القيس بالبحرين، وقد كان ذلك في سنة (١٢هـ/٦٣٣م) . فقاتلهم ابن الحضرمي فلم يفلت منهم أحد، ثم توجه ابن الحضرمي إلى القطيف : وهي من أعظم مدن البحرين ففتحها أيضاً، وقد كان بها جمع كبير من العجم فقاتلهم، فأصاب منهم طرفاً، وفر الباقي إلى الزارة ونزل الخط على ساحل البحر، وحاصرهم وقاتلهم وقد كان ذلك موافقاً أو متزامناً مع وفاة الخليفة الأول أبو بكر الصديق ﷺ وجاء بعده الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ ، حيث طلب أهل الزارة الصلح، فوافق العلاء على ذلك وصالحهم . وبعدها عبر العلاء إلى دارين : وهي فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، والنسبة إليها داري، وتشير الروايات إلى أن المسلمين اقتحموا إلى دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي، فأجازوا بذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون على مثل رملة فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل وإن ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر في بعض الحالات .

فالتقى الطرفان، فقاتلهم ابن الحضرمي، وقتل المقاتلة، وحوى الذراري، وسبوا، وقد بلغ منهم الفارس ستة آلاف، والراجل ألفين .

وقال في ذلك عفيف بن المنذر :

ألـم تـر أن الله ذلل بـحـره   وأنزل بالكفار إحدى الجلائل ؟
دعونا الذي شق البحار فجاءنا   بأعجب من فلق البحار الأوائل

ومن هناك بعث العلاء عرفجة بن هرثمة إلى أسياف فارس فقطع في السفن فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس، واتخذ فيها مسجداً، وأغار على بارنجان والأسياف وذلك في سنة(١٤هـ/٦٣٥م) .

وقد أعقب كل هذا أن جاء العلاء بن الحضرمي كتاب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ يأمره فيه بالمسير إلى البصرة، حيث يقول له : " سر إلى عتبة بن غزوان فقد وليتك عمله واعلم بأنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى لم أعزله إلا أن يكون عفيفاً صليباً شديد البأس ولكني ظننت أنك أغنى عن المسلمين في تلك الناحية منه فاعرف له حقه، وقد وليت قبلك رجلاً فمات قبل أن يصل، فإن يرد الله أن تلي وليت وإن يرد الله أن يلي عتبة فالخلق والأمر لله رب العالمين . واعلم أن أمر الله محفوظ يحفظه الذي أنزله فانظر الذي خلقت له فاكدح له ودع ما سواه فإن الدنيا أمد، والآخرة أبد، فلا يشغلنك شيء مدبر خيره عن شيء باق شره، واهرب إلى الله من سخطه فإن الله يجمع لمن يشاء الفضيلة في حكمه وعلمه، نسأل الله لنا ولك العون على طاعته، والنجاة من عذابه" .

خرج العلاء بن الحضرمي في جماعة فيهم أبو هريرة، وأبو بكرة، وكان يقال لأبي بكرة حين قدم البصرة البحراني، وقد ولد له في البحرين ابنه عبد الله .

خامساً : صاحب الدعوة المجابة :

لقد كان العلاء بن الحضرمي ﷺ مجاب الدعوة، وأنه خاض البحر بكلمات قالها ودعا بها، وذلك مشهور عنه، ولاسيما في كتب الفتوح . روى عنه من الصحابة السائب بن زيد، وأبو هريرة (رضي الله عنهما) .

وعن أبي هريرة ﷺ أنه كان يقول : "رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبداً : قطع البحر على فرسه يوم دارين، وقدم يريد البحرين، فدعا الله بالدهناء، فنبع لهم ماء فارتووا . ونسي رجل منهم متاعه، فرد، فلقيه، ولم يجد الماء، ومات ونحن على غير ماء، فأبدى الله لنا سحابة، فمطرنا فغسلناه، وحفرنا له بسيوفنا، ودفناه، ولم نلحد له" .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة ﷺ أنه قال : "لما بعث النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى البحرين، رأيت منه ثلاث خصال : انتهينا إلى شاطئ البحر، فقال سموا الله تعالى واقتحموا ! فسمينا واقتحمنا فعبرنا فما بل الماء أسافل أخفافنا، وضربنا بفلاة من الأرض، وليس معنا ماء، فشكونا إليه، فصلى ركعتين ثم دعا الله تعالى، فإذا سحابة مثل الترس، فسقتنا واستقينا، ومات فدفناه في الرمل، فلما سرنا غير بعيد قلنا : يجيء سبع يأكله . فرجعنا فلم نره . . ." .

وفي رواية أخرى عن سهم بن منجاب أنه قال : "غزونا مع العلاء بن الحضرمي دارين، فدعا بثلاث دعوات فاستجيبت له فيهن : نزلنا منزلاً فطلب الماء ليتوضأ، فلم يجده، فقام فصلى ركعتين وقال : " اللهم إنا عبيدك، وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم اسقنا غيثاً نتوضأ منه ونشرب، فإذا توضأنا لم يكن لأحد فيه نصيب غيرنا" . فسرنا قليلاً فإذا نحن بماء، حين أقلعت عنه السماء فتوضأنا منه، وتزودنا وملأت أدواتي، وتركتها مكانها حتى أنظر هل استجيب له أم لا ؟ فسرنا قليلاً، ثم قلت لأصحابي : نسيت أدواتي . فجئت إلى ذلك المكان، فكأنه لم يصبه ماء قط، ثم سرنا حتى أتينا دارين والبحر بيننا وبينهم، فقال :"يا عليم، يا حليم، يا علي، يا عظيم، إنا عبيدك، وفي سبيلك نقاتل عدوك، اللهم فاجعل لنا إليهم سبيلاً، فتقحم البحر فخضنا ما يبلغ لبودنا، فخرجنا إليهم، فلما رجع أخذه وجع البطن، فمات فطلبنا ماءً نغسله، فلم نجد فلففناه في ثيابه ودفناه . فسرنا غير بعيد فإذا نحن بماءٍ كثير

فقال بعضنا لبعض : لو رجعنا لاستخرجناه، فغسلناه، فرجعنا فطلبناه، فلم نجده، فقال رجل من القوم : إني سمعته يقول : "يا علي، يا عظيم، يا حليم، أخفِ عليهم موتي أو كلمة نحوها، ولا تطلع على عورتي أحداً، فرجعنا وتركناه" .

وعن عمرو بن ثابت قال : "دخلت في أذن رجل من أهل البصرة حصاة، فعالجتها الأطباء، فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه، فأسهرت ليله ونغصت عيش نهاره، فأتى رجلاً من أصحاب الحسن فشكا ذلك إليه فقال : ويحك، إن كان شيء ينفعك الله به فدعوة العلاء بن الحضرمي التي دعا بها في البحر، وفي المفازة . قال : "وما هي رحمك الله ؟ قال : يا علي، يا عظيم، يا حليم، يا عليم . فدعا بها، فوالله ما برحنا حتى خرجت من أذنه ولها طنين حتى صكت الحائط وبرئ رحمه الله" .

وروى ابن الحضرمي عن النبي ﷺ : "مكث المهاجر بعد قضاء نسكه بمكة ثلاثاً" .

والمعنى أن الذين هاجروا من مكة قبل الفتح إلى رسول الله ﷺ ، حرم عليهم استيطان مكة والإقامة بها . ثم أبيح لهم، إذا وصلوها بحج أو عمرة أو غيرهما أن يقيموا بعد فراغهم، ثلاثة أيام ولا يزيدوا على الثلاثة .

سادساً : وفاته :

اختلفت المصادر التاريخية في سنة وفاة هذا الصحابي الجليل، فقسم من المصادر ذكرت أن وفاته كانت في سنة أربع عشرة وهذا يوافق خلافة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب ﷺ (١٣ — ٢٣هـ/٦٣٤ — ٦٤٣م) .

أما القسم الآخر من المصادر فإنها تذكر أن وفاته كانت في سنة إحدى وعشرين، وهذا يوافق خلافة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أيضاً، ولكن يتزامن مع الفترة الأخيرة من خلافته .

إذن كانت سنة وفاته ما بين (١٤هـ/٦٣٥م) و (٢١هـ/٦٤١م) . ولكن من خلال الروايات وقراءتنا لها نرجح أن سنة وفاته كانت سنة (١٤هـ/٦٣٥م) والله أعلم .

وقد كانت وفاته في طريق ذهابه إلى البصرة، حيث أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ أمره أن يتوجه إلى البصرة ليكون والياً عليها، ولكنه توفى في الطريق بموضع فيه ماء من مياه بني تميم يقال له : تياس، وذلك قبل أن يصل إليها، فولي بعده البحرين للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ .

كان ابن الحضرمي ﷺ أول مسلم ركب البحر، وأول من بنى مسجداً في أرض الكفر، وأول من ضرب الجزية على الكفار، وأول من نقش خاتم الخلافة .

وعن ابن عباس ﷺ أنه قال : "أول جمعة جمعت بعد جمعة في مسجد رسول الله ﷺ في مسجد عبد القيس بجواثي في البحرين" . وقد كان له أثر عظيم في قتال أهل الردة .

نهال خليل يونس الشرابي

أستاذ مساعد التاريخ الإسلامي

جامعة الموصل/ كلية التربية/ قسم التاريخ

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم

١ – الطبقات الكبير – محمد بن سعد – تحقيق علي محمد عمر .

٢ – تاريخ خليفة بن خياط – مراجعة مصطفى نجيب فواز .

٣ – المحبر – محمد بن حبيب – تصحيح إيلزة ليختن ستيتر .

٤ – المسند – أحمد بن حنبل .

٥ – صحيح البخاري .

٦ – صحيح مسلم .

٧ – فتوح البلدان – البلاذري – وضع حواشيه عبد القادر محمد علي .

٨ – التنبيه والإشراف – المسعودي – تصحيح عبد الله اسماعيل الصاوي .

٩ – البدء والتاريخ – المطهر بن طاهر المقدسي – نشر كلمان هوار .

١٠ – جوامع السيرة النبوية – ابن حزم الأندلسي – مراجعة الشيخ نايف العباس .

١١ – جمهرة أنساب العرب – ابن حزم الأندلسي – مراجعة لجنة من العلماء .

١٢ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب – ابن عبد البر .

١٣ – صفة الصفوة – ابن الجوزي .

١٤ – معجم البلدان – ياقوت الحموي – دار إحياء التراث العربي .

١٥ – أسد الغابة في معرفة الصحابة .

١٦ – سير أعلام النبلاء – أحمد بن عثمان الذهبي .

١٧ – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – أحمد بن عثمان الذهبي .

١٨ – تجريد أسماء الصحابة – أحمد بن عثمان الذهبي .

١٩ – المختصر الكبير في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ - ابن جماعة الكناني – تحقيق آسيا كليبان .

٢٠ – المصباح المضيء – محمد بن علي بن حديدة الأنصاري .

٢١ – الإصابة في تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلاني .

٢٢ – العلام قاموس تراجم – خير الدين الزركلي .

٢٣ – بنو عبد شمس ودورهم في التاريخ العربي الإسلامي حتى نهاية عصر الخلافة الراشدة – الدكتورة نهال خليل يونس الشرابي .

٢٤ – أوراق من التاريخ العربي الإسلامي – الدكتورة نهال خليل يونس الشرابي .